سيّدة الأحلام المؤجّلة

آمال عواضة

الكتاب : سيدة الأحلام المؤجلة (مجموعة قصصية)

المؤلف : آمال عويضة

الطبعة الأولى : القاهرة ٢٠٠٩

رقم الإيداع : ٢٠٠٩/١٨٠٥

الترقيم الدولي : I.S.B.N: 978 - 977 - 6284 - 63 - 0

الناشر

شمس للنشر والتوزيع

٨٠٥٣ ش ٤٤ الهضبة الوسطى- المقطم- القاهرة

ت/فاكس: ٢٧٢٧٠٠٠٤(٠٢)- ٠١٨٨٨٩٠٠٦٥/٦٤(٠٢)

www.shams-group.net

الغلاف للفنان : مصطفى رمزي

سيّدة الأحلام المؤجّلة

مجموعة قصصية

آمال عويضة



إلى أمي وأخواتي البنات . . .

رِفقَةُ الأيامِ التي لم تمنحنَا بَعدُ كَامِلَ بهجتِها ،

فانتظرناها سِحرًا و أحلامًا و ...

آمال

المحتوى

- شجن خفيف :

- أوراق ملونة
- مفتاح حياة
- ولع الأحجار

- شوك محتمل :

- جسد حاضر
- عرق ملون
- روائح تسد الطريق

- حنين ممكن :

- أقاصيص لا تقرؤها الأمهات
- أرض و قمر
- مطاردة

- ولع دائم :

- شجرة التين

- فرصة أخيرة :

- سيدة الأحلام المؤجلة
- رجل الحواديت

سيدة الأحلام المؤجلة

" اعلم أيها الفتى، أن روحي تحبك، وعقلي ينتظر سنوح الفرصة للفرار بعيدًا عنك، إذا ما التفت يمنةً أو يسارًا.

واعلم أعزّك الله أنك ستمر في محبتي بأبواب عدة، تخرج من أولها مبهورًا، ومن ثانيها مفتونًا، ومن ثالثها مأسورًا، ومن رابعها مسجونًا، ومن خامسها مجنونًا، ومن سادسها متعبًا، ومن سابعها هاربًا بلا أمل ولا آمال ".

(١)

أرفع جسدي من على حشية وضعتها على الأرض، وأنفض عنه النوم وقائمة أحلام مؤجلة، صوت المياه يرن في عمق الحوض "الإستانلس ستيل". تتساقط القطرات فرادى أولاً، ثم تنتظم في خيط رفيع سرعان ما ينقطع، أستمتع بالوحدة لذهاب أمي لقضاء أيام عيد أصغر لدى شقيقة، فأعجبتها اللّعبة التي واصلتها حتى عيد أكبر تال، أكتفي

بغسل الكوب ببعض من الماء، وأضع المتبقي على النار، ثم أعود لكتابة رسالة إلى صديقة بثتني بالأمس جرح خيانتها مكتوبًا بعد أن تقطعت بيننا السبل:

الغالية...

ليس من بعد تحية سكبناها، ولا أشواق خرجت ولم تعد.

أثق تمام الثقة أن الرجال خائنون، إذ لم يُصادفني قط رجل أحترم وفاءه لامرأة مهما كان حظها من جمال أو طاعة أو جاه أو سلطة أو شخصية ذات هيبة، وأشاركك اليقين في أنه أمر يسري في دماء كل آدم أياً كان، وأزيد أنه لم ينتف حدوثه إلا مع الأب الأول (آدم).. هل قلت لك قبلاً أنني لا أثق إلا في وفاء (آدم)؟

نعم، ربما لأنه الرجل الوحيد الذي لم يرتكب حماقة خيانة امرأته، أو تدري لماذا كان مخلصًا؟ أعتقد أن الأمر كان على الرغم منه، إذ لم يكن له من مفر سوى (حواء) المرأة الوحيدة، كما أنه؛ ربما؛ لم يكن ليستطيع خيانتها مع بناتهم، وهذا هو السبب الوحيد الذي دفعني للتحسر لأنني لم أكن قط (حواء).

(٢)

"قمري المجنون"، هذا هو الاسم الذي عثرت عليه في أثناء وجودي في "الميني باص" المتجه إلى التحرير، وأظن أن المرأة التي احتلت الكرسي بجواري قد استعاذت بالله من الشيطان الرجيم وعدوى الجنون عندما لمحت على وجهي طوفان ابتسامات لا مبرر لها، وخاصة في شارع الجلاء ذي سحابة النّكِد التي تترك غلالة من غبار الغضب الأسود على وجوه عابريه، وأكاد أجزم أنني لمحت المرأة من طرفٍ خفي وهي تتفرس في "بروفيل" وجهي لتتأكد من أنني أبتسم بلا سبب، هذا طبعًا ما اعتقدته المرأة المسكينة، التي لا تدري أنني كنتُ ابتسم بارتياح وابتهاج لتوصلي أخيرًا لاسمه وصفته بعد أن قررت تجريده من كل ما اعتاد عليه من أسماء أو ألقاب لم أشارك في خلعها عليه: "قمري المجنون"، وأنني بالتالي صرت أحمل منذ تلك اللحظة لقب "حبيبة القمر".

كنتُ قد وجدتُ متسعًا من الوقت هذا الصباح لأمُرّ على شقيقتي لإنجاز بعض الواجبات العائلية، وقبل أن أمضي وجدتني أُقبلها وأحتضنها، لأسباب عدة، من بينها أنني قد لا أراها قبل الجمعة

القادم، وربما لأن اليوم "سبت" وأنني اتفقت وإياه على اللقاء، ولأنني سعيدة بتلك الحواديت التي ينسجها وحده حول أيامي دون أن أقع في شباكه.

أترك شقيقتي خلفي وأتجه إلى التحرير، أركب "ميني باص" بجوار امرأة اعتقدتْ أنني هاربة من مستشفى المجانين، ولا تعرف السبب الحقيقي لبهجتي في يومٍ ممطر، ومع ذلك كان لدي الجرأة كي أُشككَ في كونه السبب الكامل في الجريمة الكاملة لبهجتي، والوقاحة لأقول له في التليفون الذي لم يرد عليه: "طز فيك"، ذلك لأنه على الرغم من عدم رده إلا أن ذلك لم يتسبب في أي حزنٍ عابر أو مقيم، حالة الفرح اليوم أصيلة لا تتعلق به؛ رغم كونه مصدرها؛ ولكنها تتعلق بي، وأنني أريد أن أكون هكذا رغم عدم وجوده، ومع ذلك أجد لديّ قدرٌ من الاستفزاز لأسأله:

– هل أنت مستعد للإبهار الكامل؟

بينما أتابع بريق عينيه، والحدقة تتسع لمرآي بالعباءة السوداء وشال حرير أحمر يغطي جانب الوجه، بينما نجلس أمام "الحسين"، لنشرب الشاي ممزوجًا بالبهجة.

(٣)

الآن أحتفل، بينما أستطيع أن أترككَ خلفي في هدوء. أستطيع أن أتخلص منك دون إحساس قديم بالذنب، لأنني اكتشفتُ كم أنا جبانة.

اليوم أحتفل، أوقد شموعًا وبخورًا، وأملأ البانيو ماءً ساخنًا، وقليلاً من أملاح بحر ميت جلبها لي أحدهم.

الليلة، لا أرى صورة وجهي المنطبعة على زجاج المرآة بعد أن غطّاها بخار الماء ودخان البخور الذي اعتدت شراؤه من منقبة تجلس عند محطة المترو، واعتادت أن تناديني بـ"الأبلة"، وتسألني عن أحوالي بود عندما تفتقد رؤيتي لبعض الوقت، وعادة تسألني وهي لا تنتظر ردًا، بينما تداعب ابنتها النائمة في حِجرها باليد المغطاة بـ"جوانتي" أسود.

في المرآة، وجهي بعيدًا وغائمًا، أتخيله جميلاً كما قلتَ لي، أُغمض عينيّ فلا أراك ولا أرى وجهي، بينما أشعر بيدين باردتين خطفتهما أول المساء، أمسكتُ بإحداها مرفقك ونحن نعبر الطريق، فتعجبتَ، وصحتَ: كم هي باردة، رغم البلوفر الصوف. تتنقل عن يميني وعن يساري لتضغط في كل مرة يدًا تنقل إليها دفئًا مؤقتًا، وبعد دقائق،

تكتشف عدم جدوى ما تفعله، تقفُ في مواجهتي، وتطلبهما – معًا – لتقبلهما وتنفخ فيهما من روحك لتدفئتهما، أكادُ أصرخ في وجهك، وأذناي تشتعلان شيئًا فشيئًا، بينما أكتم صرختي المستجدية: "إحنا في الشارع".

(٤)

كانتْ ليلتنا بالأمس مجنونة كما اعتدتُ أن أصف كل ليالينا رغم أنها ليست كذلك البتة، ولكننا - وبالتأكيد ولحسن الحظ ورعاية السماء والأرض- لم نفقد بعدُ روح الجنون التي غلفتْ أرواحنا منذ بدأنا اللعبة.

فقط، وبعد أن كان مجنونًا، أصبح مفتونًا، ثم أمسى مسجونًا. وتبعًا لنظريتي في الأرواح، كنّا اثنين من مساجين وسط البلد الكبير، بينما تتخبط أرواحنا في سجونها الصغيرة.

قلت له: "روحي تحبك يا مسجون"، وابتسمتُ.

ضحكنا كالمعتاد، وارتفعتْ ضحكته وحده حتى لامست سماء سجننا القريبة، وواصلنا السير والضحك والمشاكسة بإصراره على وضع يده على كتفي، فأدفعها في شبه غضب لأننا "في الشارع يا مجنون".

جلسنا إلى مقهى خالٍ؛ إلا من محاولاته المستمرة لتقليدي، وعيني المندهشة المطلة على فراغ روحه التي أُضل الطريق في أدغالها، بينما أضحك لأنه يقلدني في ما أفعله ولا يبتكر ألعابًا جديدة سوى اللعب في كفي بضراوة شبل صغير.

لا أنسى عندما كادت روحي تسقط من جلدي، بينما نقف في الميدان ليودعني بالقرب من "أمناء شرطة" استندوا لتمثال الميدان المطل علينا جميعًا. عندئذٍ انحنى لتقبيل يدي، فكتمت صرخة وتحايلت لأستدير بسرعة ليصبح ظهره في مواجهة التمثال الشاهد علينا جميعًا، عندئذ، وضع قبلته على كفي كيفما اتفق، واختفى خلف أمناء الشرطة وهو يبتسم.

(٥)

أقول إنني أعانى أرقًا مزمنًا، وتوترًا يمنحني غلالة تكاد تُشبهني، وتُثير غبار الغموض في طريقي، ولكنني في الحقيقة أنام بعمق، وأتخيل أنني أتوتر عندما يحلو لي.

في حوارنا في ذلك الليل وسجائر أعتقد أنها "سوبر"، استطعتُ إقناعه بأنني أشكو من عارض مُقلقٍ يتعلق بمستقبل معرفتنا، انتفض جالسًا، وأنا أكاد أستمتع بتلاوة سيناريو خفوت الفضول؛ هكذا :

– كل ما في الأمر أنك أسيرُ بهجة الفضول، من أجل معرفة تتجاوز ما يعرفه غيرك عنى، وبمرور الوقت ستخفت البهجة، وتعرفني كالآخرين، وتلقى بكفك لكفى في سلام عابر، وكلمتين مغموستين في دخان سجائر اعتقدتُ يومًا أنها "سوبر".

في حديث تليفوني شبه مطول أكدّ لي أن سجائره "سوبر" بالفعل، وأضاف أنني حادة الملاحظة، وكالمعتاد جادلته حول أنني لم ألاحظ قط نوع السجائر التي يدخنها، ليس رغبةً منى في تجاهلها، ولكن اعتقادًا منى بأنه أمر شخصي للغاية أن تدخن "سوبر" أو "بلومونت"، ولكن يبدو ذلك صحيحًا على الأقل من وجهة النظر الاقتصادية من باب تشجيع الصناعة الوطنية.

مقاطعتي له أمرٌ يُزعجه كثيرًا، هكذا أتخيل، وربما لا يُزعجه ذلك على الإطلاق، أو ربما يتظاهر بأن ذلك يُزعجه إمعانًا في تأنيبي وتأكيد شعوري بالذنب تجاهه، إذ إنه في أكثر من مناسبة وصفني بالمستبدة، فابتسمت أنا المستمتعة بسكوته المرتبك لمارستي الاستبداد على شخصه الذي يبدو قويًا بصوت جهوري يجعلني أُعيد النّظر فيما وصفَ به صوتي يومًا.

إياك وفرض الرأي، فالزيت لا يمنع الماء من الغليان.

لا تدفعني لاستخدام أسلحتي للدفاع عن رأيي.

ولتسترح معي، يجب أن تؤمن بالحقيقة النسبية.

وإنه يحلو لي في أغلب الأحوال أن أتخذ من الرأي المضاد... عقيدة

(٦)

كالمعتاد...

كل يوم نفعلُ أشياءً كثيرة تليق بالحياة، ولا نحيا.

كل يوم نقولُ أشياءً كثيرة تليق بالموت، ولا تموت.

قلتُ له إنني أخشى الحياة والموت حتى لا أقترب من نفسي أكثر، في التباس واضح بين حاضر يصنع لغته شفاهة، وماضٍ قد يفرض نفسه بالكتابة. اقترحتُ عليه أن نؤلف معًا أقوالاً مأثورة عن الخائفين، فابتهج للفكرة ولم نفعل، وظل الموت والحياة والكتابة مجرد أفعالٍ حائرة بينما نتكلم بصورة تدفعنا أحيانًا للموت أو للكتابة.

أتكلم معه كثيرًا لأنني الآن وهنا، وأخاف من الصمتِ فأملأ فراغاتٍ بيني وبينه وبين الناس بقصص حقيقية وتفصيلية عن خرائط يومي، إنني أكتب إليه أحيانًا لأنني كنتُ هناك، وأفرّ منه كل يوم إلى الكتابة، ولا يركض هو ورائي.

أبتعد عنه، ولا أستسلم للكتابة إليه إلا عندما يضيق بي الهواء فوق الموائد التي تفصل بيني وبينه هو الراغب في معرفة أكثر.

هواءُ الموائد فسيحٌ لدخان سجائر أعتقد أنها "سوبر"، وعبارات من بينها: "لن أتركك وحيدًا لذئاب وسط البلد"، وضحكات وتوتر ونظرات تقفز في عمق مسافة فاصلة بيننا علّها تصل لكنوزٍ غارقةٍ مُنذ زمنٍ، ولم يكتشفها أحد بعد.

ليس لدىّ كنوزٌ عدا نفسي، واستثناءً أصفها به لأستفز مولود برج الأسد المسكون بروح الاستكشاف.

ليس لدى كنوزٌ عدا غموض، وأسرار أصنعها بنفسي لأمكث هناك وحيدة في الركن الذي خصصته لحياة سرية ليس فيها ما يُثير، ولكنها تبدو أحيانًا جديرة بالاكتشاف، فقط لأنهم لا يعرفون ما الذي يدور فيها، أو ما الذي يخفيه الوجه الآخر للقمر، وتبقى الكتابة إليه اختيارًا وفرحة إنجاز، وعطر أرواح نتمنى أن يدوم، وبهجة يزفها إليّ عندما يملأ صفحاته بكلام أو كتابة تعجبه.

هل قلتُ لك إنني لا أتذكر أحلامي، ولا تفاصيل ما يدور فيها؟

ليلةُ أمس بعد أن غرقت في نوم عميق لم يأت قبل الثالثة صباحًا وجدتني وإياك على كرسيين على رصيف معتاد وأمامنا سيارة حمراء "أعتقد أنها سيارتك" كنّا نسير إليها بضيق، بينما أكرر على مسامعك العبارة المعتادة:

– حمارتك العرجا تغنيك عن سؤال اللئيم.

وأستيقظ.

(٧)

من شمعات الماضي أجلب واحدة، لم يأكلها "سوس" العتّة، ولم يترك خلفه فوارغ الجسد بيضاء من غير سوء، وفتيل أسود من بقايا تجارب سابقة. بعودِ ثقابٍ واحدٍ أشعلتها، ولم أجرؤ على إشعال النار في ذاكرتي.

تُرى لماذا منحتني حفنتين من أصابع الكبريت الصغيرة، ولم تُشعل لي شمعة على الطريق؟

شكرًا على الكبريت وعذرًا لأنني لن أنجح في إشعال النار فيك، لا الآن ولا مستقبلاً، فأنا كائن جبان واستثنائي يحرص على تنظيم ذاكرته كل فترة، ويُلقى بما يستطيع أن يحمله جامع القمامة معه، ولا يجرؤ على إحراق كل سفنه.

يومًا بعد يوم أُلقى أشياء هامشية واستثنائية أيضًا، وأسمح لنفسي من حين لآخر بإشعال النّار في بعضُ الخطابات التي كتبتها وتخصني، ولا تخص أحدًا غيري، ولكنني لم أستطع حتى الآن إشعال النّار في ذاكرة تؤرقني وتحيل أيامي إلى عيدان كبريت تشتعل تلقائيًا كما في "مهمة مستحيلة".

أجهدتُ ذاكرتي في رسم ملامح اليد التي أعطتني حفنة العيدان. تذكرت الوجه، وبقايا آثار بشاشة جلية عليه، وبهجة لا أجهلها تمامًا، وقصص عن أناس يعرفهم وتفاصيلهم التي تزيدهم عريًا وإنسانية، ونهايات لم أخطها.. ولكنني قط لم أتذكر كيف كان شكل أصابعه وأظافره ولون "السويتر". فقط وجه ينتظر قطرات معرفة تساهم روحي في تكثيفها على جدران عقله. هلا ساعدتني على إطفاء النار التي ألقاها أحدهم على روحي، فتركت آثارًا بنية في أبيضي الشاهق.

(٨)

ظلتْ تبحث لأيام وساعات طويلة عن مصدر تلك القصة التي يطلب فيها ملكًا طماعًا أن يتحول كل ما يلمسه إلى ذهب (ربما كانت في ألف ليلة)، وبعد أن فقد ابنته التي تحولتْ إلى تمثال من الذهب فور لمسه لها، مات جوعًا وعطشًا لأن كل طعام وشراب اقتربت منه أصابعه تحول إلى ذهب.

رثيتُ لحال الذي لم يعشق الأصفر، ولم أندم عندما ألقت في عين الشمس بحلقته الذهبية التي تركتها بعيدًا خلفي متجهة نحو ذهبي الشعر في بلاده ذات الشمس الخجولة.

زغرد تليفون منزلها، وهو يدعوها لشرابٍ في مكانٍ محايد، فتمطت حوائط مكتب أصفر حلبة خفيف ونفضت غبار طال سكونه على صفحة الجدران.

حصدتْ أوراقًا ونقشت حروفًا، والتصقتْ قبلاتها على وجه أم صبوح في إطار مذهّب، قفزت في داخل ملابسها، وطارت كعصفور كناريا أصفر في رداء يليق بسعادة الحياة، واصطحبت بهجتها إلى شارع على ناصيته وقفتْ شمس الصباح تتسكع في زهو ذهبي بينما يتباهى فكهاني بموزه وبلحِهِ الملوكي.

في انتظاره، شربتْ ينسونًا ذهبيًا تافهًا بلا شخصية، فاصطبغ لسانها بأصفر قاتم رصدته عندما ذهبت لتطمئن على طلّتها الزاهية بينما تخرج لسانها لتستفز تشاؤمها القابع هناك منزويًا في ركن بعيد، قالتْ لنفسها أمام المرآة أصفر ذهبي، يا.. يعيش، يا.. يعيش، وحدّقت في وجهٍ باسمٍ زاهٍ بلون القمح الناضج.

بوجهٍ عبوسٍ استقبلها، وصفرة غضب تدور في داخل عينين قاسيتين كالمحفورتين في جبل، لم يحمل وردًا أصفر ولا أحمر، ولم يحتمل زهو أصفرها، فاندفع بقرنيه:

– أنا اكره اللون الأصفر.

قالتْ تشاكسه: وأنا أكره إسرائيل.

ابتسم ابتسامة لا لون لها، وضنّت فيما بعد أن تصفها بأنها صفراء، كانت "الدبلة" صفراء ذهبية تمامًا وهى تخلعها، كان هذا أول تخلي لها عن الأصفر الذي أصبح لونها المفضل، وصداقتها لشمس أنارت روحها التي زغردت لرحيل دائرته الذهبية بعدما تحولتْ إلى قضبان سجن أسود تُهاجمها في كوابيسها.

عندما عادت، صنعتْ مشروبًا أصفرًا قاتماً من الشاي الأخضر ممزوجًا بالنعناع وكثير من السكر، وشربته استمتاعًا ببهجة روحها الغارقة في ابتسام أصفرٍ زاه.

(٩)

نسيتُ أن أقول له –مع سبق الإصرار والترصد– أنني مغرمة باللعبة، تلك اللعبة التي لا تعرفها فتترك من أجلها كل رفاق اللعب القدامى، وتُفسح لها وقتًا، وتمنحها بهجة وعيون جاحظة وأصابع تتسلل في هدوء كي تلمسها لتتأكد من كونها حقيقية.

في لقائنا الثالث، كنّا نضحك بينما يتلاقى الكفان تعبيرًا عن اتحاد النكتة، أو فكرة عبرت لنمسك بها ويضيع دمها بيننا.

قلت له يومها إنني أفعل أشياءً كثيرة في وقت واحد، وأريد إنهاء كثير من الأمور في الوقت نفسه، فنصحني كحكيم – لم يكنه – بالتركيز، ثم قال لاحقًا: لا بأس.

نسيتُ أن أقول له إنني أعرف اللعبة وقواعدها، وأنّ كسر قواعدها غير وارد. أيامٌ ونملّ اللّعبة،أسابيع وتضيع البهجة ونعود لرفاق اللعب القدامى نشاركهم ما عرفناه، شهور وننسى اللعبة وربما تعثرتْ أقدامنا في لعبة جديدة تأخذنا، نفسح لها أوقاتًا، ونمنحها أروحنا وعقولنا لبعض الوقت حتى نملّ.

نسيتُ أن أقول له تمامًا إنني ليست لدي أوهامًا تتعلق بكوني لعبة،

وثمة مرارة تتعلق ربما بتجارب نفسية في الصغر أو الكبر لا تسمح لي برفاهية القيام بدور اللعبة، ولذا سأضطر لاحقًا للانسحاب من اللعبة مبكرًا حتى لا أجرح أحدًا.

وربما يُفسر ذلك عدم اتصالي به لطلب موعد اللقاء، وربما يفسر ما قلته من شكي في استمرار تواصلنا، بينما ظل يفكر في رحلات طويلة في الشتاء والصيف نقطع فيها الطرق سويًا صامتين في صحبة آخرين.

من حين لآخر أمارس اللعبة نفسها، وأنا أعرف كم أنجح في أن أكون بسيطة وتلقائية لدرجة الإبهار، أعلم أنّ النساء حولي لا يتحدثن بالطريقة نفسها، ولا ينظرن بالطريقة نفسها، ولا يتركن كروتًا إذا تأخرت إحداهن ربع الساعة بكلمات فيها من التأنيب المراوغ الكثير وعلامة تعجب: لعل المانع خير!

النساء حولي لا يستخدمن علامات التعجب بكثرة، لكنهن -لذكائهن- ينجحن دومًا في إخفاء نظراتهن المهتمة فيتحولن إلى نساء ممكنات يدفئن القلب، أما أنا فأمارس ضغوطي على الروح، تلك منطقة أتفرد باللعب فيها والتّماس معها، أُطلق روحي لتصادق روح الجالس أمامي وأصطحبها في جولة ودٍ ليصبح بعدها الساذج أسير ودّ الأرواح فلا يدرى لماذا رآني طيبة، ويعتقد أنه قد أفلح في رمي شباكه ولم يتبق سوى التهام العصفور الصغير.

أكدتُ له بثقة تامة وبقليل من غرور النفس الأمارة بالسوء أنني طيبة ولا أكن ضغينة لأحد، وأنني أعرف ذلك ليس بدافع الثقة في النفس ولكن من باب التجربة، التي أكدتْ لي على مدار أعوام قضيتها مع نفسي في الجسد نفسه، إنني كما وصفت نفسي لا لشجاعة، ولكن لعدم قدرتي على القيام بما هو عكس ذلك.

أحيانًا.. أردُّ الأمر إلى بعض الغباء، وكثير من نبلٍ حاولتُ التخلص منه فلم أفلح بعكس صادق شرشر[1]:

أما النُبْلُ ..

فده شيء تاني خطير ومقزز

قررت أصفيه مع نفسي...

من النهارده قررت ما اكونش نبيل.

قلتُ له أيضًا إنني مثل الميزان لا أملك شجاعة معاقبة الذين أساءوا لي، وأنني أكتفي بمحوهم من ذاكرتي الماضية كالعقرب، فلا اسم في نوتة التليفونات، ولكن عنوان في قائمة بريدي الإلكتروني، لأنني ما زلت في انتظار رسائل اعتذارهم.

---

(١) في قصيدته عن الأرانب

(١٠)

يبدو سعيدًا بملاحقة وجهي الذي استطاع الإمساك بتفاصيله في موعدنا الثاني، الذي لم يكن له من سبب عدا مساعدته في رسم صورة الوجه الذي ضاع بعد المقابلة الأولى ولم يبق منه سوى جسد في بلوفر سماوي، كان يتخيله ويزعجه دون الرأس.

– قلتُ: لم يعد لي إلا رأس نبتت وحان قطافها.

– قال: أينما تولوا وجوهكم، فأضاف.. فثمة عيون حبيبتي.

مارستُ اللعبة وسخرتُ من جسدي الذي تخيله يتحرك كفرسان العصور الوسطي في قلعة روحه التي أفسح لي مكانًا في دهاليزها، ولكنه حرمني رأسي حتى لا أتجسس على غرفه الخاصة، تلك التي رأيت صورة له في إحداها حيث يكتب ومن فوقه كتب تراصت على أرفف، أخشى أن تقضى عليه فيموت شهيدها، وغرف أخرى لم أرها ولكنها ضمت نساء منهن امرأة تحبه رقيقة ورومانتيكية وقعتْ في غرامه، وغرفة أخرى خصّصها لامرأة على طرف النقيض، وأخرى تضم ميراث عائلة.

نسيتُ أن أقول له إنني أفرّ من الآخرين وألوذ بنفسي لأمنحهم فرص جديرة بالحياة من دوني، حتى يشعرون باختفاء امرأة سمراء طيبة تدعى أنها وحيدة بينما هي تلعب مع أرواحهم في مكان بعيد.

كشفتُ له عن مرآة روحي المغامِرة بينما أترك أقاربي العاديين في المنزل الذين نشفق عليهم ونحبهم لأنهم يتحملوننا كثيرًا بينما أرواحنا معلقة بشئون أخرى وبعيون ذكية رأيناها ولم نستطع اصطحاب أصحابها إلى داخل غرف نومنا، فجعلنا أرواحهم تتسلق الحوائط كلصوص محنكة وتدخل من النافذة التي تطل على أسِرتنا، وتركناها مفتوحة من أجلهم، نحتضن تلك النظرات الذكية، والابتسامات المجلجلة التي نغلفها أحيانًا بشريط لاصق حتى لا تنفجر في أوقات غير مرغوبة، نحتضنها ونحاول أن ننام بعد أن نغلق بوابات قلاعنا، ونفتح غرفنا الصغيرة التي لم يعرف كنوزها أحد غيرنا، و نستمتع بثواب استدعاء الماضي في جماعة.

ها هي الدّقات تتسارع، وأرواح أخرى على الناصية تنتظرني لأتركه وحيدًا لوحوش وسط البلد.

(١١)

بالأمس استطعتُ إقناعه بأن اسمه غير موسيقي، أو بمعنى آخر أنني أجد صعوبة في النطق به، فاقترحت أسماء كثيرة، وصار يعدد لي أسماءً طالما ناداها به جده أو جدته أو حبيبة في لحظات خاصة، ولم يعجبني أيٍ منها، فاقترحت آخر جديد ضحك له ضحكة طويلة ونحن في الشارع، ولم ألتفت حولي لأعرف هل يُراقبنا أحد من الناس، ولكنني وبخته عندما أصرّ أن يعبر الطريق وهو ممسكًا بذراعي، هو الأكبر مني بعام واحد ويحتكر حنكة العجائز.

اليوم صارحته وقلتُ له: إنني لن أحبه، وأنني لا أريد أن أحبه، ولم أحلم بمحبة شخص يشبهه، قلت له إنني تذكرتُ اليوم كونه مُدخنًا شرهًا للسجائر التي لا أطيقها، وأن شفاهه زرقاء مما سيمنعني بالتأكيد في المستقبل من مجرد التفكير في تقبيله.
كان حوارنا كفيلاً بالقضاء على بهجات كثيرة، لأننا وصلنا إلى قمة البهجة التي لن نتجاوزها بالتأكيد.

عندما ذهبتُ إلى مكتبي في الصباح، نظرت إلى "عدّة" التليفون وتذكرته وابتسمت، ربما كان نائمًا، ولكنني الآن أُشاكس روحه التي

اصطحبتني طيلة الطريق بينما أدندن باسمه الجديد وأستمتع بأصابع روحه على شعري.

قاومتُ قليلاً حتى رفعتُ السماعة وقلتُ وحشتني، فأطلق ضحكة الحشاشين المعتادة، قال لي إنه ظل يفكر فيما حدث طيلة الليل. ولم أُنكر أن الأمر نفسه حدث معي، قلتُ له مشاكسة: إنني فكرت ألا أراه ثانية بعدما حدث، فأجاب وأنه فكر في أمور مشابهة. فقلت له: اتفقنا، فقال: سلام.

قبضة من حجر أمسكتْ بقلبي، وبدأتْ في العصر، اغتظتُ أكثر، وأردتُ ألا أمنحه فرصة البقاء بعيدًا في سكون بعد أن استرد روحه، اتصلت به لأخرج له لساني وأقول له: إن نبوءتي تحققت، فقال لي: إنها لم تتحقق لأنني قلت أن الأمر يخفت تدريجيًا، ولكننا الآن نقرر بأنفسنا. وبخته لأنه أرسل لي رسالة يقول فيها: إنني ألعب.

لاحقًا، اتصل بي ليقول: إنه على بعد خطوات لإنجاز بعض الأعمال ودعاني لمقابلته في وسط الناس فرفضت، اتصل بي ثانية فأرجأت الموعد حتى يُنهى عمله. لم يقل لي إنني أوحشته، وبدا حذر البوادي وأرقها يأكل وجهه الذي تخلص من منابت لحية وشارب اصطحبهما

بالأمس، كان مبهجًا في "بلوفر" نبيذي برتقالي فوق بنطلون قطيفة بيج، صرتُ أعرف كل تفاصيله، وأضيق بشعره الذي يتركه طويلاً بعض الشيء. قُلنا كلامًا كثيرًا، ولكن الأكيد أننا كنا ملك وملكة، نتيه بأنانيتنا، وضحك عندما قلتُ بواقعية باردة: لا أريد أن أحبك؟
وبرومانسية زاعقة: أنت لست الرجل الذي أريد أن أحبه ؟
وباشمئزاز تمثيلي: أنا أحبك.. أنتَ؟

(١٢)

يبتسم الرجل ويقهقه مستسلمًا لما أفعله فيه، يدّعى أنه لا يفهم وأصدقه في الأغلب الأعم، ولكنني لا أستبعد في ضوء نظرية المؤامرة أن يكون أحد أصدقائه الذين لا أريد أن أضع نفسي وإياهم في قلعة ذاكرته قد أوعز له بالدخول إلى ساحتي.

مبتهجة اليوم، ولا أنهي يومي قبل أن أتصل به، كان في طريقه إلى النوم؛ وليس النوم ببعيد. أرّقته ببعض العبارات، والتنظيرات، والاتهامات، والضحكات، والسقا الذي مات، والثعلب الذي فات، والبلح الأمهات، وزميلي القادم من بلاد لا تكف فيها السماء عن البكاء والولولة.

اليوم قلتُ له ولرجلين آخرين إنني مبتهجة، ومنحتهم جزءًا من روحي والآمال، أحدهم عابر سيرحل بعد أيام، وأحدهم باق منذ سنين، ويبقي هو في المنطقة بين العبور والإقامة، حيث البهجة مكتملة والعيون تتسع لرؤية الكون، وشفاه ترتعش بنشوة الكلام المسكون ببراءة مصلوبة على رأسي في "توكتين" على جانبي الرأس:
– ارفع عينيك عنهما، وامنحني صك النضج.

كتبتُ له اليوم جزءًا من روحي، قال لي إنه عاد البيت ليقرأ لا ليكتب. لم يسطر لي أجزاءً من روحه أو تاريخه، فقط وحدي أعلم وجع بلاده وأولاده، وتراث من الميراث، وقلوب تملكه، وأرواح تطارده، ولكنها جميعًا لم تفلح في دق أوتاده إلى أرضهم الرملية.

(١٣)

في درس اللغة الفرنسية، أنجح في فهم قصيدة قصيرة، وأزف نبأ بهجتي إليه لأدلل كم كنتُ غبية، وأصبحتُ ذكية، لأفهم أنه يمكننا تلخيص حياة إنسان وحيد في اثني عشر سطرًا، تُرى هل سنكمل اثني عشر سطرًا سويًا؟

Le message...

La porte que quelqu'un a ouverte
La porte que quelqu'un a refermée
La chaise ou quelqu'un s'est assis
Le chat que quelqu'un a caresse
Le fruit que quelqu'un a mordu
La lettre que quelqu'un a lue
La chaise que quelqu'un a renversée
La porte que quelqu'un a ouverte
La route que quelqu'un court encore
Le bois que quelqu'un traverse
La ravière ou quelqu'un se jette
L'hôpital ou quelqu'un est mort

Jacques Prévert, Paroles, Gallimard, 1949

الرسالة...

الباب الذي فتحه شخص ما

الباب الذي أغلقه شخص ما

الكرسي الذي جلس عليه شخص ما

القطة التي داعبها شخص ما

ثمرة الفاكهة التي قضمها شخص ما

الخطاب الذي قرأه شخص ما

الكرسي الذي قلبه شخص ما

الباب الذي فتحه شخص ما

الطريق الذي ركض فيه شخص ما

الغابة التي عبرها شخص ما

النهر الذي ألقى فيه بنفسه شخص ما

المستشفى الذي مات به شخص ما

جاك بريفير، كلمات، جاليمار، ١٩٤٩

(١٤)

مع عام جديد فعلتُ كالأيرلنديين، واخترتُ أحجارًا لتهمس لي بحظي في القادم من الأيام، في مجلة للنساء قرأتُ موضوعًا عن العرَّافين الأيرلنديين الذين استمعوا للحجر باعتباره جزءًا من روح العالم، وعلى أحجار دقيقة التقطتها من بحر أزرق صفته الأحمر، رسمتُ بالقلم الفلوماستر أشكالاً تخص الأيرلنديين المتنبئين، أمضيتُ في تنظيمها ليلة ربما لأبهجه وأبهره بما صنعت.

في اليوم التالي جربتُ صدقها على صديقي من البلاد التي تبكي، وصديقة من السيدة زينب، لم تُبهرهما اللعبة، بينما كان إيماني بها كبيرًا، وعدته أن أقرأ له ماضيه وحاضره ومستقبله، فلم يهتم إلا بالحاضر، حيث أكون.

ضحكنا.

كنتُ متوترة. جمعتُ شعري فابتسم لوجهي الجديد، وبدا سعيدًا بأنفه، العضو الوحيد الذي يتيه به، فأقمتُ أمامه مرآة وشرّحت أنفه أمامها.

استفزه قليلاً أن أكون أطول منه، وعندما خلعت "السابو" البني، كان هناك نحو خمسة أو عشرة سنتيمترات لصالحه فاستراح قلبه.

لم أعد أعرف كيف أكتبه ولكنه كان يكتب شيئًا على خدي الأيسر عندما وضع ذراعه حول كتفي ليحتضنه بينما نُشاهد معهًا فيلمًا حربيًا صاخبًا.

كانت الحرب جزءًا من اللعبة والتيه بالذات، جسدي يحاول أن يهزمه فيستسلم، فلا أجد للنصر لذة، أميل بخدي على كتفه الدفيء، أقبله وأمضي.

(١٥)

الآن، لا أعرف كيف أكتبك، ربما لأنني أريد أن أعيشك، الآن أريد أن أنام، ربما لألحق بروحك هناك وأتشبث بها كما لا أفعل وأنت أمامي دمًا ولحمًا في اليقظة.

تُرى لماذا نسيت اليوم أن أخبرك أن آخر عود ثقاب قد أهديتني إياه في لقائنا الثاني قد أشتعل بالأمس، تُرى لماذا لم تصدقني عندما قلتُ إن المناديل فراق؟

أخشى عليك يا مفتون أن تمضي عمرَك وراء ندّاهة تجري وراء مجهول وروح لا تعرف أين قرارها.

تُرى هل كان حلمًا أن نقف هكذا بلا حراك أمام السينما على الطرف الآخر من الطريق نتطلع إليها وننبهر بأضوائها والجمع من حولنا يتحركون، لماذا كنا أشبه ببطلي فيلم أبيض وأسود وقفا بلا حراك، والجمع من حولهما يتحرك، كنا نأكل الآيس كريم ونضحك، ونبحث عن امرأة واحدة أو رجل واحد نستطيع أن نسألهما أيهما الأجمل أنفك أم أنفي، نسينا الهدف ووقفنا نتحدث، ولا أذكر مما قلت سوى أنك كنت مفتونًا.

هكذا يا بطل هزلية ضاحكة وساخرة نضحك فيها من العالم ونطلق فيها سخرياتنا اللاذعة من النسوة المعتادات والرجال الذين اعتادوا تهذيب حواجبهم وشواربهم.

تُرى كيف يكون شكلك بشارب وبدون أسنان صفراء من السجائر، وقتها سأفكر طويلاً وسأطلب منك حلق شاربك فترفض، وتفقد للأبد قُبلتي التي لن أمنحها لك إلا في أحلامي، أو عندما ألهو هناك على ناصية "طلعت حرب" أمام سينما مترو مع روحك، دون أن يلمح أحدهم تحقيقنا لرغبة عارمة راودتنا ونحن هناك.

بعد أمسيتنا الصافية الضاحكة، قطعتُ ضحكتي وقلتُ له: لا أريد أن أراك ثانية. أكدّ لي كالآخرين أن لون عيني بني غامق، ويرى شعري اللون نفسه، وقال لي: لا تُفسدي اللحظة، ولا تستفزي وحش الغد، وأعقبها بجملة عن رغبة في ألا يكون هناك مستقبل حتى لا ننتقل إليه، ولا ماضٍ حتى لا يجذبنا إليه. قلتُ المشكلة تكمن في أن الحاضر حقير وقصير وميت بالفعل، وأنا أحيا في مستقبل سيكون حاضرًا، ولذا لا أريد أن أراك فيه.

عندما اتصل بي في اليوم التالي أنّبته لأنه كان ينبغي أن يتصل بي ليطمئن لعودتي، حتى ولو كنتُ قد قررتُ وحدي الانفصال. قال

لي: إنه بالقرب من مسكني. كنت أتخيل أنه سيفعل ذلك، ولذا جهزتُ الردّ، وسألت: هل ترى الشارع الرئيسي؟ قال: نعم، قلت: اركب أي شيء في اتجاه منزلكم. ضحك مطولاً، وفاجأني باللعبة، إنه ليس بالقرب من منزلي ولا يحزنون، وشمس ميدان التحرير تسطع على وجهه، ويسمع ضحكته فيه كل المارين به، قال إنه لن يفعل شيئًا دون إرادتي، قلتُ له: وأنا أثق بنفسي، لأنني حتى لو أردت؛ لن أدعوك.

أنهينا المكالمة على وعد بلقاء قريب لأحصل منه على أشياء وعدني بها قبل أن ننفصل، أو نقرر في ليلتنا الصافية الضاحكة أن ننفصل.

(١٦)

(بَعتلك يا حبيب الروح، بعتلك روحي
وقلت لك ما دام ها تروح، خد معاك روحي)

اليوم أكملتُ مجموعة ألف ليلة وليلة الناقصة عددًا، أذكر أنني طلبتُ منك في اللقاء الثاني الجزء الخامس المفقود، حيث كنتُ أملك ٧ من ٨ ينقصها الخامس، تصورتَ إنني أهنتك عندما لم أعرب عن فرحتي بحضورك المتخيل لبيتي، ولأنني أهنتكَ كتبتَ لي في ورقة وضعتها في قلب الجزء المنقوص:

أحضرتُ الكتاب بنفسي، ولكنني لم أصعدْ، نويت على ذلك بعد مكالمتك، والدقة في بداية مكالمتك، لا شك أنني أُهنت، تربيتُ بطريقة قاسية تصعّب عليّ التسليم بالإهانة، ولكنني أُهنت فعلاً، كان يمكن أن أُرسل لك الكتاب مع أحد العاملين، ولكنني آثرت معاقبة نفسي، اعتبرت توصيل الكتاب بنفسي عقابًا مناسبًا، دائمًا أحس بالمسئولية الأفدح عن كل ما يقع لي وحولي، كان يمكن أن تقولي شيئًا آخر، شيئًا يناسب ما توقعته من حنان ورقة وحساسية، كان يمكن

أن تقولي مثلاً وبنفس الحدة والغضب والتأنيب: قف مكانَك، وسآتي إليك.
ولكنكِ اخترتِ الانتقام، فكرت وتخيلت وتوقعت، واتخذت قرار ردعي، الأمر لم يزد عن كونه دعابة، كنت في ميدان التحرير، ولكنني فوجئت...

جاءت الرسالة وللمصادفة أمام قصة تستهويني تعكس خطيئة العجلة وفضيلة التجاهل، إنها قصة ذلك الرجل الذي نصحه شيخ بكّاء يموت؛ ألا يدخل من باب بعينه فدخل من الباب وعاش ٧ سنوات من الهناء، عاشر فيها ملكة وصار ملكًا على شعبها، ولكنها نصحته ألا يفتح باب بعينه، ولكنه سرعان ما أُصيب بمرض الملل، واتجه ليفتح الباب، فوجد نفسه بجوار شيوخ آخرين يبكون ضياع العز والمحبة بالفضول.

أتدري، أمامي عود البخور يصنع خيطًا من دخان، سلسًا ومغرورًا ككرامتك أحيانًا، ومتعرجًا يصنع أشكالاً ودوائر مخروطيات الشكل يفرُ بعضها خلف بعض مثل روحك التي تطاردني.

(١٧)

هل قلتُ لك إنك مفتون بالألعاب الآن؟

لقد استبدلتَ الألعاب بواقعك، وصرتَ تتعامل معها باعتبارها عالمًا مستقلاً بذاته، بالأمس لم تباغتني لعبتك عندما قلتَ لي إنك بالقرب من مسكني، فقلت لك ردى الذي جهزته قبل ساعات: إذًا، استدر واذهب في طريقك، وعد من حيث أتيتَ.

غضبتَ وكتبتَ لي رسالة تعبر فيها عن مرارة الإهانة، أنت الذي كنت هناك بعيدًا ولم تقترب سنتيمترًا واحدًا من منزلي.

أدمنتَ اللعبة، فحاولتَ مفاجأتي بلعبتك التي حطمتها، فبكيت.

تبدو علاقتنا كمسلسل له سيناريو متوقع ويكتبه كل منا ويخطط له صفحة بصفحة، عندما أيقظتني من نومي، لتستمع لصوتي المغلف ببقايا سبات لم يحظ بتشريفك في أحلامي المتباعدة، أنساني صوتك المبتهج الذي لا يتناسب كثيرًا مع حجم الإهانة المأساوية التي حاولتَ تصويرها في رسالتك البيضاء، أن أقول لك ما جهزته من شريط للصوت: "بتسأل ليه عليا، ما لكش دعوة بيا".

تذكرتها في منتصف المكالمة التي طالت كثيرًا لتؤكد فيها دون أن تدري أنك أصبحت أسيرًا للعبة.

(١٨)

ألعب وأنا أُعيد خياطة بعض الأجزاء من كليم وبر الجمل، وأتذكرك في كل غُرزة أغمدها في جسده المسجى على الأرض، بينما تدور أغنيات عربية قديمة:

يا خفافتي، يا لطافتي، وانا عمّالة أدّلع

وورايا "أتلايا" في هوايا بتولع

تنتهي الأغنية، وتلحقها أغنية "إفري تايم" لبريتني سبيرز:

It is easy to break a heart
It is easy to close your eyes

- *سهلاً، أن تحطم قلبًا، سهلاً، أن تغلق عينيك (عن الحقيقة).*

لا تنتهي الأغنيات، وأنتهي من خياطة الأجزاء التي تمزقت من روحي، وعجزتْ روحك الماجنة عن مداواتها.

" لا تفتح بابًا لم يؤذن لك به حتى لا تفقد مجدًا باهرًا وعزًا ترجو أن يدوم".

تذكرتُ حادثة سرقة حلقي وأنا أقوم بخياطة روحي، هل لأنني تذكرت الشيكولاتة وأنك لم تجلبها لي معك قط وأنني لم أطلبها، ولم أعد أريدها؟

أتدري؟..

استطاع أحدَهم أن يسرق حلقي وأنا طفلة لأنه وعدني بشيكولاتة وكُرة.

(١٩)

اليوم أشعلتُ آخر أعواد ثقابك التي قدمتها لي كهدية غير مباشرة في لقاءنا الثاني، عندما أردتَ أن تتخلص منها لامتلاكك ولاعة غاز، ولم تتجاسر على إلقائها في سلة المهملات أو تركها خلفنا، فاخترت أن تمنحني إياها رغم أنني لا أدخن.

قبل صفحات كنتُ قد قلت إنني أشعلتُ العود الأخير، ولكنني اكتشفتُ لاحقًا "المشط" الآخر المزق ممددًا على رف دورة المياه، حيث كنتُ أستخدمه لإشعال أعواد البخور التي أقوم بإشعالها عندما أريد تدليل روحي وأرواح أخرى تشاركني المكان.

(٢٠)

" *غُلبت أقطع تذاكر وشبعت يا رب غربة*"

قُلتها متذكرة (بيرم التونسي)، لنقهقه سويًا بصوت نكاد نكتمه حتى لا يتردد في أرجاء محطة المترو، الذي جلسنا ننتظر ؛ محاولين في صمت حضور آخر أذياله.

كان الوقت قد تجاوز منتصف الليل بقليل، أو كثير، وجدتُ الأمير ولكنني لم أركض ولم أترك خلفي الحذاء الذي استبدلته بـ"السابو" الذي جلستُ أختار وأحتار في أصله وفصله، قلت له: سابوه، وحرقوه، ورموه. واكتشفت بعد ذلك أنه كلمة فرنسية تعني القبقاب الخشبي، أو الحذاء المقفل من الأمام والمفتوح من الخلف. يبتسم فقط فأمثل غضبًا لأنه لم يضحك، ولكننا بالتأكيد لم نكن بحاجة لبضعة جنيهات، كنّا نضحك ونحاول أن نكتم الضحك جاهدين حتى لا نُوقظ أرواحًا نصف نائمة للجالسين في المحطة. ورغم نجاحي في ترويض أرواحٍ أخرى، إلا أنني لم أكن لأجرؤ على إيقاظ أرواحهم المتعبة الضارية، التي تستطيع أن تلتهمنا كاملين.

قال لي: أحبك.

فانزعجت ضاحكة، لأنني بذلك أكون قد انضممت للبائسات اللاتي اعترف لهن بحبه، ولم أنجح في الانضمام لأخريات دام حبه لهن لأنه لم يعترف، هكذا أصبحتُ من البائسات، وضحكنا لأننا كنا فعلاً "غَلابة" كما اعتاد أن يصف الذين أمارس عليهم قسوتي.

قلتُ له: إن المناديل فراق. فاعتبر أنها إشارة رومانتيكية لوداع نلوح فيه بالمناديل بدلاً من أن نحطم "القلل" في نهاية القصة.

بصراحة حاولت أن تكون معهودة، كذبتُ عليه وقلت: إنني لم أفعل ذلك وراء أحد.

أعلم أنني كنتُ أكذب، وأنني لم أكن المرأة الوحيدة في حياة كل الرجال الذين عرفتهم وأحرقت خلفهم كل الجسور، ولكنني مازلتُ أحتفظ لكل واحد منهم بجزء من روحه اختلستها لتؤنس وحدتي التي أعلم أنها ستطول.

"لاتشيزا" عدلي

ديسمبر ٢٠٠٤

رجل الحواديت

" العزيزة،

يشك رأسي هذه الأيام أنني تعلمتُ من الأيام ألا أحب ؛ إذ أكتفي من المحبة باختباراتها ، وأن على الآخر اجتياز البحور السبعة ، لأضعه على قائمة الأحباء المحتملين. يبدو بالفعل أنني لم أقع في الحب قط ، إذ أن كل أحبائي المحتملين لم يجتازوا قط اختباراتي المرعبة ، واكتفوا من القصة بالسقوط في أحد البحور الفاصلة بيني وبينهم، ولأنكِ صديقة ، أشاركك وحدكِ جزيرتي لتتابعين في فضول إصبعي وهو يشير إلى بحر ليس بالبعيد حيث سقط أحدهم في حضن أخرى في وسط بركة من الماء العذب، فارًا من بحاري المالحة ، وأحدهم رجل الحواديت "

أتذكر عندما جاءني رجل الحواديت حاملاً سيفه الخشبي، وظهرًا متعبًا من الأثقال، وإصابات قال إنها من أجل وطنٍ صار يكرهه ويفكر في هجره، وأنا أعلم تمام العلم أنه كاذب. له قدم يتكأ بها على الأرض أكثر من الأخرى، ولكنها تطأ التراب وكلها رغبة في الطيران عن مدينة لا تتسع لروحه المسجونة في مشاكل عائلية ، وبقايا تجارب فاشلة ، وعصبية أوردته دائمًا المهالك.

كانت له حكايات وتاريخ مولود العام الثالث والسبعين، وذكر لي فيما ذكر أنه صنع نفسه من صفحات صفراء لكتبه التي يستخدمها أصدقاؤه الآن كمقاعد للجلوس عند زيارة غرفته المتخمة بها، وربما لهذا السبب كان سيفه خشبيًا، وجرابه مملوءًا بالحواديت التي لونتْ صباحات ومساءات أسبوعين باردين من شتاء ندعي في كل عام أنه الأكثر صقيعًا، ورغم إيماني بأنها مجرد حواديت، ورغم شكّي فيها جميعًا، إلا إنني كنت أفتقدها كلما غاب.

وعندما يهاجمني الليل في غرفتي، أغلق العينين لأشرب عسل عينيه المصفى من الذاكرة، لأبتسم لمشهد أذنه اليُسرى التي تشتعل فيها النيران كلما هربنا إلى مكان دافئ من شياطين يناير وطوبة ومراهقي الشوارع في الأعياد؛ مما دفعني للاعتراف بأن لي أذنين تشتعلان أيضًا في حالات الحب والانتظار والتوتر والخجل، ولكنه لا يعتقد أنني أخجل كالأخريات، ويراني كالآخرين قوية وجريئة ومستبدة، ولكنه مع ذلك؛ وحده يراني جميلة كما أريد أن أكون.

معه كنتُ أستدفئ في برودة الليالي برائحة بلوفرات صوفية وسيمة ذات رقبات مرتفعة تقسمها "سوستة" تحاول إخفاء فانلة قطنية بيضاء بحمالات، وتفاحة محرمة لم أتذوقها ولم أمد يدي إليها قط،

وأندهش قليلاً مع فتح العينين على اتساعهما لقيامه بشراء نصف دستة من النوع نفسه الذي أحبه من "البلوفرات"، التي يخرج من كميها كفان أبيضان من غير سوء، وتنتهيان بتلك الأصابع الطويلة التي أصاب الاصفرار أطراف يسراها من سجائر أعتقد أنها سوبر.

• • •

لمدة أسبوعين من يناير بعيد وبارد، تعقبته روحي أينما حل، وكيفما اتفق، تفرغت له تمامًا، بدا لي كفارس، وخمنتُ أنني أحب الفرسان، إذ اعتاد المقربون اتهامي بالغرق في أحلام اليقظة لدأبي المنتظم في تخيل فروسية من رابع المستحيلات. ربما كان رجل الحواديت فارسًا وربما لدي أيضًا يقين وهاجس أن أرواح الفرسان بها بقايا أو نفحات من روح ملاك متقاعد، أدعي أنني لم أذكر ذلك قط مباشرة، ولكن أحدهم قال لي: إنني أبحث عن ملاك، ولم يضحك عندما قلتُ له: إنني أريد رجلاً بلا أجنحة لأتمكن من احتضانه، وقال لي فيما بعد توطد صداقتنا، إنه تأكد تمامًا بعد تعليقي الساذج أنني كاذبة، وأنني لم أبحث قط عن رجل من أي نوع.

• • •

حاول صاحب السيف الخشبي ألا يتركني لعقلي كثيرًا، ونما اعتقاده في صلابة روحي، دون أن يعلم أن مصيره المحتوم هو القتل والتخلص من جثة محبته دون آثار تدينني، إذ يمكنني إذابته فيما قص عليّ من حواديت، لأنام بعدها قريرة العين لأنه كاذب، ولأنني امرأة تشك في الجميع.

كانت له عينان عسليتان مسكينتان، ورأس ملكي الذي اعتاد أن يحرث شعره حتى يكاد جلدها يبين بعد ١٠ أعوام من الاعتياد على سمتْ فدائي مدرب، تلك الهيئة التي لم يتبق منها سوى إصرار على انتصاب الظهر، وشهادات تحمل توقيعات بلياقته التي كانت، وآثار على جسده لم أر منها سوى الاتكاء الواضح لقدم ترغب في الطيران على أرض لا تحتويه.

يحمل شهادة فدائي وليس روحه، له لسان شجاع وقلب يدعيها وبرج أسد، وروح تطارد قصصًا مستحيلة، ويطاردها شبح أب تاجر مزواج أراه سينمائيًا، ويراه ابن الصباح نذلاً. تُرى هل هذا الشبل من ذاك الأسد؟

لا أعلم ما هو برج أبيه، ربما كان عقربًا أو ثورًا؛ لا يفل الحديد إلا الحديد. هو يريد التخلص من زيجة مفروضة من ابنة العم التي

يصورها مدللة في سيارة اشتراها لها العم الذي اعترض على شراء أخيه سيارة لابنه، قائلاً:

- هو يعني هيعمل بيها إيه؟

هكذا صوَر لي العز و"الفخفخة" والميراث الضخم مرهونًا بالموافقة، وهو يماطل، ولكنه لم يقل إنه لا يستطيع الرفض. تعلل للأب بإصابة ولده، وساندته نصيحة طبيب بالتريث لأن الإصابة قد أثرت على قدرته الحركية، التي فهمها الأب أن عطبًا مؤقتًا أصاب ابنه، وأن الشفاء وارد، والعلاج الطبيعي والعطارة يصنعان المعجزات.

عندما نصحه صديق وجار بالزواج ممن يريدها قلبه، وممن يريدها أبوه، هز رأسه وقدّم له ابتسامة لم تكن أبدًا عريضة، مؤكدًا أنه لن يصلح كزوج إلا لامرأة واحدة، وليس لامرأتين. قال هذا في المقابلة الأخيرة، أما في المقابلة الأولى فقد اشترى سلسلة فضية تحمل أول حروف اسمه، واعتاد أن يطمئن في كل مرة لوجودها حول رقبتي، مثلما اعتاد ركوب المترو معي في عكس اتجاه منزله لينزل في محطة وسطى، وينتظر حتى يتحرك المترو ثانية مرسلاً سلامًا بعينيه المسكينتين؛ المحتاجتين دومًا للسكر الذي يسكب خمس من ملاعقه في فنجان صغير من الشاي أو القهوة "الاكسبرسو".

أما أنا فقد كنتُ قد توقفت منذ فترة عن شرب الشاي الأحمر؛ بسكر أو بدونه، في محاولة ساذجة مني للتخلص من سيطرته. وعندما عدتُ إليه أخضرَ، كنت أوفر كثيرًا لأمي في السكر لدرجة إعلان بهجتها لتوفير طارئ لأنها لم تضطر لشراء أكياس السكر لأشهر طويلة مضت.

ويا ناس لو غاب يا ناس، خلوه يبعتلي سلام
دي الآه باقولها وهو ما يدراشي،
وف بعده طعم الدنيا ما يحلاشي،
قولوا لعين الشمس ما تحماشي
أحسن حبيبي ده اللي صابح ماشي

وعندما غاب بناء على طلبي، اعتدتُ أن أضيف للشاي الأخضر كثير من السكر ليساعدني على احتمال "قرصات" الغياب، واختفاء عينين اعتادتا سكب العسل المحروق في دمي الذي غلى يومًا لإصرارهما على النظر بعيدًا وتجاهل عينين تتعقبانه وأنف يلتهم رائحة عرق ممزوجة بتبغ سجائر "سوبر" أو "إل إم أحمر".

في الليل أضع سكري في فمي، أمتصه في شوق وأنا جالسة في براح غرفتي، متدثرًا أسفلي بالأسود الذي يعشقه، لينسكب عليه دمي الشهري بلون أحمر يكرهه ولا يُطيق رؤيته على أجساد النساء اللاتي

ستدخل إحداهن يومًا إلى عرينه لتكون زوجة أسد في أعوام باردة قادمة قد أُنفقها جميعها وحدي في شرب شاي أخضر دون سكر.

" الغالي

ترى لماذا لمَّ أصارحك بأنني أعرف تقريبًا السر الذي أخفيته عني؟

إن ظهرك لم يؤلمك لأعوام سدى، وأن تلك الحادثة لم تكن وهمًا وأن ثمة أجيالاً لن تنجبها، وإنني مثلك تراودني الشكوك وقد تجاوزت عقودًا افتراضية للإنجاب قد جعلت مني متورطة معك في سرِّك الذي لم تُفصح عنه أبدًا، وستظل رافضًا له مؤكدًا لنفسك أنك لن تستطيع الزواج بسبب ابنة عمك والثروة والميراث، وأنني الأم التي تمنيتها دومًا لأبنك، ولكنني - وللمفاجأة - لن أكون له أمًا ؛ أو لغيره".

مؤخرًا، اكتشفتُ فراغ خزانة مطبخنا من السكر، دون صراخ أم تشكو من إسراف طارئ باغتني بعد زهدٍ طويل. الآن وبعد تلك العقود التي مرتْ، أراني أميل للاعتقاد بأن روحي ربما كانتْ تسرق سكرنا في

تواطأ مِنّا لتمنحه إياه في الأحلام التي كانت تُراوده وتؤكد حاجته الشديدة لجسد يُؤنس وحدته في تلك الأيام، وذلك ما لم أستطع قوله في اتصال تليفوني أغلقت في نهايته سماعة التليفون بعنف في وجهه حتى يتسنى لي التخلص من رائحة تِبغه وعرقه الذي علِق بمسامي فترك لي بُقعًا حمراءَ على جلدي المرهف، وأخرى أكبر قليلاً على روحي الأكثر حساسية التي استلزم علاجها وقتًا أطول وماءً كثيرًا.

كافية البستان

يناير ٢٠٠٥

- عامية روحي :

- رسائل مش قصيرة
- عنوان غير عامي خالص

رسائل مش قصيرة

بص بقى..

النوم صعب، ولما باغمض عيني وأتكلم مع نفسي عن السبب اللي ما خلانيش أنام، بالاقيني باعترف لها بدون مراوغة إنه واحشني صوتك العريض، اللي أحيانًا بيكون بارد وتقيل في التليفون ومستفز وانت معايا، وتفاحتك اللي بتعاكسني على شجرة رقبتك اللي ماتعلقتش بيها لغاية دلوقتي عشان أموت مشنوقة، وضحكتك اللي بتطلع كل فين وفين زي شمس أمشير، وعينيك العسلي الغلبانة اللي تملي بتبص في دايرة بعيد عني وكأنها بتحميني من محاولة أكيدة للاغتيال، وودانك الشمال اللي بتحمر أكتر واكتر لما بامد إيدي عشان أتأكد إنها سخنة زي لونها، وبلوفراتك أم رقبة عالية وسوستة.. باحب ألعب فيها وانت بتحاول تكتم ضحكتك وتتلفت حوالينا أكتر لاحسن يكون حد من الناس أخد باله إني فتحتها لغاية ما ظهرت فانلتك الداخلية أم حمالات طيبة.

وبتوحشني كمان جزمتك اللي بتلمع حتى والدنيا بتمطر، وشراباتك السودا اللي ما بتشتريش غير لونها، وكل بنطلوناتك الجينز الغامق والفاتح اللي كنت بامسح رجلي فيها كنوع من الود، وده بعد ما أقلع

جزمتي تحت الترابيزة، عشان بنطلونك اللي بيبرق ما يتوسخش من جزمتي اللي بامسحها الصبح بس.

واكتشفت بعد كل ده، وعلى سهوا، وفي عز الليالي اللي قضيتها من غير رسايل نص الليل، إني احتمال واقعة في حب كل حاجاتك لأنها بتشبهك، وإن انت واحشني لأنك بتشبه نفسك بس وما بتشبهش أي حد، ويمكن عشان كده أنا بادوّر الأيام دي على حد تاني تايه في وسط الناس اللي ممكن يكونوا بيشبهوك، واللي مش ممكن أحبهم خالص لأني ما باحبش قوي الناس اللي شبهك، ويمكن أعمل نفسي مش واخدة بالي إن عين المحب بالتأكيد عامية وطرشة وخرسة كمان.

يا ترى يا واحشني بتفكر في مين؟
عامل إيه الشوق معاك، عامل إيه فيك الحنين؟
سهرت السهر ف عينيا، صحيت المواجع فيا،
كل ساعة وكل ليلة وكل يوم،
بعد ما اطمن عليك هيجيني نوم يا حبيبي

بس على الرغم من كل القلق اللي عيّشتني فيه، والحواديت المريبة اللي ما صدقتش تلات ترباعها، كنت باستغرب كل يوم من رسايلنا البديعة اللي تشبه رسايل عشاق رومانسيين عمرهم ما اتخانقوا أبدًا:

– كل أسبوع وانت طيبة بمناسبة أسبوع على معرفتنا

– أنا كل أيامي معاك أعياد

– إزاي؟

– كل يوم تشوفني وتشوفك شمسه ... عيد

ومن المؤكد إنه كان ليا دور لا يستهان بيه في المسألة دي، وده مش غرور، لأني عارفة إني كنت بأرد عليك بطريقة لازم تخلي أي واحد ينبسط إنه يبتدي يومه بالكلام ده، مثلًا لما كتبت صباح يوم اثنين:

– شكرًا لربنا إنك هنا، وشكرًا على السعادة اللي بتبعتها حروف في رسايل. هاكلمك بعدين، خليك في الأنحاء، دمت حبيبًا.

وده كان رد تاني على رسالة وصلتني منك، كتبت فيها بالإنجليزي ما معناه:

– أنا استنيتك كل حياتي، وباحبك دلوقتي، وقبل كده، وهافضل أحبك لغاية بعد ما أموت.

وطبعًا ده خلاني أفتكر على طول (عبد المطلب) اللي باموت في صوته وأغنيته "حبيتك وبحبك وهاحبك على طول". ويمكن ده اللي مخليني عاوزة يكون فيه شيء مشترك بينك وبينه، مثلًا لما أجيبلك بنت والا ولد ونسميه (نور) عشان تبقى أبو (نور) زي (عبد المطلب)

أو أبو (نور). وإن كنت عارفة إنك عايز تجيب (أدهم)، وده أسم أنا مش معترضة عليه بس باشوف إن (نور) في بداية العنقود حاجة تنور حياتنا النهاردة وبكرة وامبارح اللي كان يوم حد، وكان أجازة من الشغل، وابتديت فيه وصلة من الرسايل، بعد ما صحيت من نومي الساعة ١٢ الضهر:

– الضهر بيدن، إصحى بقى. والله فيه حاجات تانية في الدنيا غير النوم، أنا مثلاً ☺

– وحشتيني موت

– وكمان ما بتعرفش تقرا؟

– ممكن أشوفك النهارده؟

– ليه؟ صاحبي؟ زميلي؟ معرفة قديمة؟ جيران؟ قرايب؟ نسايب؟ حبايب؟روح العب بعيد الله لا يسيئك، لسه بنقول يا فتاح يا عليم ☺

وأخيرًا، انتهى الحوار مع سبق الإصرار والترصد برسالة منك كتبت فيها بإيدك كلمة النهاية اللي نزلت على شاشة الموبايل بتاعي:

– بحبببببببببببببببببببببببببببك

ولأن "الموبايل" بتاعي ما بيقراش عربي، كنت مفتونة بطريقة كتابة الرسايل بالحرف اللاتيني، وكان ده بيملاني ثقة مفيهاش شعرة شك إن الرسايل دي كانت ليا أنا بس، عشان مش هتقدر تعمل "فوروارد" لأي حاجة قديمة كانت مركونة على الموبايل بتاعك،

ويمكن عشان كده أنا كنت متأكدة - وده قليل لما بيحصل - إن رسايلك ليا كانت أجدد حاجة في حكايتنا اللي تشبه قصص المراهقين بتوع اليومين دول وحواديت اليومين اللي فاتوا، ويمكن للسبب ده نفسه أنا كنت بامسحها بعد ما باسجلها في الأجندة اللي بافكر أكتب فيها يومياتي، أولاً: لأني خايفة إن الموبايل يتسرق، وثانيًا: إن حد غيري يشوف الرسايل، وثالثًا: لأن الموبايل الحقير ما بيشلش غير ١٠ رسايل بس، وبرضه يمكن ده السبب إللي مخليني كنت عايزة أشتري موبايل له ذاكرة أكبر، بس اللي أنا خايفة منه إنه ساعتها أكيد مش هالاقي رسايل أملا بيها صندوقه زي اللي حصل في يوم اتنين من سنة فاتت، لما بعد الضهر بشوية، يعني حوالي الساعة ١٤,٤٢ زي ما بيكتب الموبايل، أو الساعة ٣ إلا تلت زي ما بنقول إحنا، صبّحت عليا وقلت:

- إصحي، الدنيا فيها حاجات حلوة "كتير" غير النوم.

- أنا صاحية من بدري عشان "الحاجات دي"، بس ما ظهرتش غير دلوقتي ☺

- حاجات إيه اللي ظهرت دلوقتي بس؟

- اسمك على شاشة الموبايل بتاعي ☺

- **استطراد لابد منه ..**

واللي كان دمه خفيف فعلاً في حكاية الكتابة بالانجليزي كتابة رقم ٧ بالانجليزي بدل من حرف الحاء، و ٢ بالانجليزي بدل من الهمزة، بس أنا ضحكت أكتر على كلمة "كتير" لما قالي إن الدنيا فيها حاجات حلوة كتير، وكأنه صدق إنه خواجة بشعره البني وعينيه العسلي ولونه الأبيض اللي حاول يتباهى بيه يوم عليا فوقفته عند حده لما بصيتله في عينيه قوي، وركزت ع الجرح القديم اللي شق حواجبه المقفولة في النص بالضبط، يوميها قالي إنه مبسوط إني ما أخدتش بالي من وسامته، وإنه استغرب لما أنا قلت له إنه احتمال كبير إنه عجبني عشان بيمشي وهو بيعرج، لأن ده ظريف ولافت للنظر من وجهة نظري. واستوضحني لما قال بإنجليزية: عايزة تقولي "سيكسي" يعني، ولما هزيت راسي بالموافقة، عمل نفسه بيبص للناحية التانية كالمعتاد عشان يراقب الناس اللي ماشيين، وقال بصوت واطي يمكن عشان ما اسمعهوش :

– ذوقك وحش قوي.

ولما يوم كنت بامثل الغيرة عليه وأسأله عن البنات اللي بيكلمهم على "الماسينجر"، وخاصة لما أتأخر في الرد عليا كان بيكلم مين فيهم، قالها لي بصراحة:

– هو فيه حد يرضى يبصلي؟، دانت بس بصيتي لي رأفة ورحمة.

لكن مش هانسى أبدًا إنه كان مغرور بالجزمة اللي بتلمع عشان تزغلل عينين البنات اللي كانوا باصين علينا من شبابيك المترو قبل ما نقرر نركب المترو قبل الأخير. وأفتكر إنه حكى لي عن سواق التاكسي اللي كلمه بالإنجليزي لما خده من الأزهر في اتجاه بيته في الهرم، وأكد لي كمان إن البنت الحلوة في وسط صاحباتها ما حدش بيقدر يقرب منها؛ لأن كل الناس بتبقى متأكدة إنها إما مرتبطة أو مش هتبص لحد لأنها مغرورة، وإن ده هو حاله بالضبط لما بيخرج مع أصحابه اللي حظهم حلو قوي مع البنات اللي كلهم بيفتكروا إنه ممل ودمه تقيل.

لكن بالنسبة لي، المسألة كانت مختلفة شوية، وكنت باشوفه حلو في عيوني أنا بس، على اعتبار إن الحبيب القرد في عين حبيبته غزال.

- **هي ضمير غائب ..**

بعد منتصف ليل قضيته في أداء أعمال منزلية كثيرة، تعطرت جميعها بأنفاس تفكر في المحبوب وتئن، وأن رأسها وحيدًا سيسقط في بحر مخدتها القطن المتسخة قليلاً، ولذا أخذت تليفونها المحمول، وكتبت تشاكسه، وتختبره:

- في يوم من الأيام، كان يوم تلات من أيام شهر يناير جاء متزامنًا مع برودة طوبة وعيد ذي الحجة، شهدت وسط المدينة حدثًا جللاً. هل تعرف ما هو؟

أجابها بعد مضي ساعتين وأكثر، أمضتهما في إنجاز أمور أخرى في غضب المنتظر، وحنين المحب المستعد لتصديق ما سيقوله آخر يحتل غرف القلب جميعًا:

- ما لذي حدث في ذلك اليوم، أخبريني؟

صمتت لدقائق دلالاً، فأعقبتها رسالة أخرى أقصر يقول فيها:

- أرجوكي.

فكتبت:

- أولاً، يجب أن تنتظر مثلما انتظرت ردك. وثانيًا، إذا لم تكن تعرف بالفعل ما حدث في ذلك اليوم، عليه العوض ومنه العوض.

وجاءت بعد دقائق رسالة تقول بالعربي المكتوب بحروف لاتينية:

- أنا آسف، محمولي سبته في البيت، وما كنتش هناك. أرجوكي، سامحيني، وقولي لشخص بيحبك أكثر من نفسه إيه اللي حصل في اليوم ده؟

فأجابته:

- زي ما بيقولوا في باب الشعرية: من نسي ماضيه، خسارة العتاب فيه، بقى يا ربي أخرتها واحد عنده زهايمر؟

وعندما اقترب فجر اليوم التالي، كانت تقرأ منه:

– معلش أنا عاوز الكلام يطلع من شفايفك اللي مجنناني.

وعندما شعر بصمتها، أتبعها برسالة أخرى قال فيها بتصميم:

– مش هانام قبل ما تقوليلي إيه اللي حصل في اليوم ده.

وأخيرًا أجابته:

– روح نام بقى يا شاطر، بلا قلة أدب ومياصة، إحنا هانهرج والا إيه؟ كفاية بقى، عايزة أنام، إنت معندكش إخوات بنات؟

– مش هانام وذنبي في رقبتك، إنت معندكيش إخوات بلاستيك؟

بعد دقائق بلا رسالة منها، قال في رسالة أخرى:

– أبوس إيديكي وعينيكي قولي.

الصمت يطول، فتقرأ رسالة أخرى قال فيها:

– غتاتة ورخامة لازم تقولي، أو على الأقل عشان باموت فيكي.

▪ شبكة واقعة ..

ابتسمتْ وهي تتجاوز التهديد والاستفزاز والاستجداء، بينما تضع التليفون المحمول خارج غرفتها ليتسنى لها النوم والانفراد به في أحلامها، ولم تنس أن تكتب على ورقة ما لم ترسله على الموبايل لتخطه في رسالة إلى بريده الإلكتروني:

"حصل في اليوم ده إن كل مواعيدها كانت فاشوش، والمعرض اللي كانت رايحة تشوفه ما زارتهوش، والأصحاب اللي افتكروا إن ميعادهم معاهم في اليوم التاني ما جوش، وبالتالي ما قابلتهومش لغاية دلوقت، وبدل من كل ده جالها راجل من الحواديت شايل سيفه الخشب، تعبان عاوز يحط راسه على كتفها وينام بس، وأنو مش هيعيط لأن الرجالة ما بيعيطوش. ويمكن عشان كده بتفكر تحبه قبل ما يرجع لحواديته المرعبة تاني، يمكن يعرف يخليها تبقى إزاي تكون في عينيه هو بس ست الحسن. وده طبعًا بعد ما يكشف لها سره اللي مش عاوز يقوله ومخبيه على كل الناس وهو إنه الشاطر حسن بالفعل بس عنده شوية إحباط."

أمريكين عماد الدين

يونيو ٢٠٠٤

عنوان غير عامي خالص:

لأننا مختلفون.. لا نليق بالنهايات التقليدية

تاني يوم بعد ما سبتك تحت الأرض

كانت الساعة بتناديني

والأرقام المكتوبة بوضوح على تليفوني المحمول بتغمز لي

نمرتك كانت نايمة هناك وسط اخواتها الألف

أفتكر إنها اتمطعت ميت مرة

ونادتني أرفع الغطا من فوقها

لكني زي ما قلتلك قبل كده، كنت خايفة

كانت نمرة من أرقام

وكانت المسألة بالنسبة لي ربما سؤال عابر

لكن الحقيقة اللي كانت بيني وبينها:

إني باكره الأرقام وأغرق في شبر نمرة

بس الأكيد إنك تشبهني، بتخاف من الأرقام والعفاريت

يا أنتَ ياللي اكتشفتك في يوم مسكون بأرواح محبين تانيين

ما كنتش خايفة منك

لكن كنت بارمي راسك على أكتافي واكتفي بالطيران بيك

وجسمي ماشي ع الأرض جنبك

حقيقي أتخطفت

بس تاني يوم اكتشفت إني كنت ناسية روحي في البيت

وان اللي كانت ماشية معاك واحدة تشبهني

خرجت من رسومات ستات لفنان لسه مغمور وما حدش يعرفها ولا ليها رقم قومي

انتحلت روحي في غفلة من السجل المدني وصوابع الجبنة

وخدود على وشمها تفاح منور

باندهك بعلو الروح اللي كانت هناك واستخبت

بعد ما انتهت المهمة الصعبة بسلام

• • •

يا سلام على القاهرة

اللي كانت حر في عز البرد

ورجليا اللي مش شايلاني

لأني كنت أنا للمرة الأربعتاشر في شهر فبراير

أنا كنت زي ما اتعودت من كام أسبوع

لا بيهمني صاحب الجيتار المندهش، ولا تعب الحمار المتكدر، ولا السبيل العطشان

ولا نقطة البوليس ورا الجامع الكبير

ولا الشجرة الوحيدة الموحدة، ولا الأرض المتربة، ولا السما المتقلبة

كان هاممني بس ربنا

اللي كنت باشب على صوابعي علشان أشكره

وأسيب بوستي الحيرانة على جبين سماه.

بيت الهراوي

فبراير ٢٠٠٨

- سحر قديم :

- بهجة السحر
- هدهد عابر
- فراشات الحجرة

بهجة السحر

من بوابة المدرسة الحديدية دخل ذلك الشخص في صحبة أبلة "حياة" مُدرسة المواد الاجتماعية، وعم "مرعي" الفراش. كان طويلاً ومهيبًا، يرتدى بذلة "بذيلين" وقبعة الساحر الشهيرة، ويحمل صندوقًا خشبيًا أسود اللون على شكل حقيبة سفر.

سألتني "أمل" الواقفة إلى جواري نختلس النظر إلى الداخلين من خلف شيش نافذة الفصل المطل على حوش مدرستنا الابتدائية:

- يا ترى الشنطة دي فيها إيه؟

كان السؤال لا يحتاج إلى إجابتي، فقط، كان يمكننا الانتظار عشر دقائق كي نعرف.

إلى الحوش انطلقنا نحمل حقائبنا المنتفخة بالكتب بعد أن دق جرس الفُسحة، خرجنا بعد الحصة الثالثة نصطحب بهجتنا بعد أن أخبرنا الأستاذ "إبراهيم" مُدرس الرسم أننا لن نضطر للعودة مره أخرى إلى الفصول.

عبر ميكرفون إذاعتنا المدرسية الرمادي ذي الشقوق الطولية – والذي شاهدت فيما بعد شبيهًا له في حفلات (عبد الحليم) المصورة – وصلنا صوت أبلة "حياة" حادًا ورفيعًا يطلب منا على غير العادة الانتظام في صفوف الصباح نفسها، وهو الأمر الذي لم نعتده في فسحتنا. ثم نزلتْ عن منصة الإذاعة المدرسية، وبدأتْ في المرور بين الصفوف. كانت أبلة "حياة" تستبعد إلى جانب الحائط هؤلاء الذين لم يدفعوا القرشين، وقالت بعدما انتهت من حملة تفتيشها:

– اللي ما دفعش يقدر يرّوح.

– وبينما كان الأستاذ إبراهيم يصطحب الذين لم يدفعوا إلى بوابة المدرسة، أخرجت لساني لصديقتي أمل عبد الحميد الذاهبة معهم – أنا أحبها، ولكنها حركة معتادة بيننا –.

وقفتُ أنتظر الجلوس على الدكك الخشبية العارية، التي اصطفت في حوش المدرسة على شكل مربع ناقص ضلع. أما الضلع الرابع فكانت على رأسه منضدة تحمل صندوق الساحر الأسود، ولم نستطيع الجلوس إلا بعد أن تأكدت أبلة "حياة" مرة ثانية من أن كلاً منا قد دفع لها القرشين ودوّن اسمه.

جاء موقعي إلى جوار "أميمة" ابنه أبلة الناظرة، جلستُ صامتة أتابع الساحر، وتجرفني ضحكات أصحابي فأضحك، كانت أميمة تضحك كالبلهاء تمامًا، شاركتها دهشتها وجحوظ العينين لمرأى الكتاكيت الخارجة من القبعة، وانتفاضات الأرانب الطالعة من الأكمام، والنقود الورقية التي عادت ترقص إلى الحياة بين أصابع الساحر الرفيعة.

حرص الساحر أن يختم عرضه بفقرة المناديل، تلك التي تخرج من فمه دون توقف: بيضاء، خضراء، صفراء، وحمراء.

أذكر أنني أشرت إليه بإصبعي فجاء وهو يتابع سحب مناديله الملونة، جثا على ركبتيه مبتسمًا، اقترب بوجهه مني فأصبح في مستوى قامتي القصيرة.

على كتفه وضعتُ كفي الصغير، وامتلأتُ بروحه، أشرتُ بيدي الأخرى لمن حولي فناموا أو ماتوا: سقطتْ أبلة "حياة"، و"أميمة"، وجميع أطفال مدرسة الآداب المشتركة الموجودين في الحوش.

تضرعت عينا الساحر قائلة: ارحميني، في الوقت نفسه الذي كانت فيه يداه منشغلتين بسحب المزيد من أمتار المناديل الموصولة البيضاء، الخضراء، الصفراء، الحمراء.

أذكرُ أنني انحنيت برأسي تجاه فمه، وأنني أطبقتُ بأسناني اللبنية على شفتيه، شربتُ سر الصنعة كاملاً.

ومنذ ذلك اليوم صرتُ أنمو وأكبر، بينما يتضاءل الساحر القابع بين أسناني، في الوقت الذي تتلون فيه المناديل الخارجة من بين شفتي بقتامة اللون الأسود.

الزيتون

أكتوبر ١٩٩٥

هدهد عابر

(ما روته فتاة الفندق الوحيدة عن ضفة النهر البعيدة)

أيقظتني الضربات الرتيبة نفسها لأحجار "الدومينو"، التي أغمضتُ عيني عليها بالأمس، وكأن هؤلاء الصبية لم يبرحوا أماكنهم منذ المساء.

مُتعبةٌ بقيتُ في سريري الذي ينضح حرارة من مرتبته الإسفنجية بغطائها البلاستيكي الذي يحميها من العبث بقصد أو بدون قصد. دائمًا تُذكرني هذه الأكياس البلاستيكية بأبناء شقيقاتي ومغامراتهم الليلية المبللة، ابتسمتُ للخاطر واستسلمتُ له، ومضيتُ أتحسس أسفل جسدي خوفًا من أن أكون قد فعلتها في أثناء نومي.

في سريري ظللتُ مفرودة الجسد، وتلفتُ ألقي تحية الصباح على السرير المجاور الخالي، فوق رأسي كان جهاز التكييف رابضًا يشكرني لأنني أرحته واسترحت بعد أن أفزعتني حشرجاته عندما مددت يدي إلى مفتاح التشغيل.

أما المرآة المواجهة للسرير، فقد تحاشيتُ الوقوف عندها ببصري عندما تذكرتُ القضبان التي هاجمتني قادمةً منها في أثناء نومي، تلك القضبان التي تحاصرني كفشلٍ تركته خلفي في مدينتي وجئتُ لأزور قبر والدي.

ما زال جسدي منهمكًا وساكنًا تحت تأثير تعب رحلة الأمس، ولذا انسقتُ للبقاء في السرير لمراقبة النهر العابر أمام واجهة فندق المحافظة؛ الوحيد المتواضع.

داخل رأسي امتزجت أصوات "وابورات" البحر وصراخ غربان المنطقة وخبطات الدومينو، من رقدتي فشلتُ في الحصول على ملامح وتفاصيل الضفة الأخرى من النهر، افتقدت نظارتي الطبية، وبينما أفكر في القيام للبحث عنها، رأيته يهبط بسلام على أرضية شرفة الحجرة.

كان هُدهُدًا، وربما كان حفيدًا لهُدهُد النبي (سليمان) الذي تخيله رسام كتاب المطالعة للصف الأول الابتدائي، يومها، حدثتنا عنه أبلة "هدى عبد البديع"، والتي أتذكرها واقفة بشعرها الكستنائي وقامتها القصيرة أمام سبورة فصلي؛ أولى أول؛ وهي ترسمه بالطباشير الملون، وتحكى قصته مع سيدنا (سليمان) و(بلقيس) المنقول عرشها. كنّا

صامتين نستمع إليها وكأن على رءوسنا الطير، عندما قاطعتها أبلة "حياة" داعية إياها لتناول الشاي مع أبلة الناظرة الجديدة و"سميحة" و"فاطمة" الوكيلتين.

كان الهُدهُد يقطع الشرفة بلا هدف سوى التقاط ما تناثر من حبوب غير مرئية، على مهل، تخلصتُ من ثقلي وألقيتُ بتعبي على السرير خلفي، بينما كانت قدماي تنزلقان نحو الأرض، خلف الزجاج اتخذت مكانًا أرقب ذلك الذي أراه لأول مرة بذيله وألوانه ومنقاره المعقوف، أيقنتُ أنه لم يكن مهتمًا بشيء، ولم يعنيه اقترابي أو ابتعادي، كان يشبه أحد تلاميذ فصلنا، حينما انتهت فسحته وراح يتكاسل عن الصعود لحضور بقيه حصصه، ولكن الهُدهُد سرعان ما عاد يطير نحو الأسفل.

إلى الشرفة خرجتُ أتعقب خفقات جناحيه، كان قد اختفى تمامًا بعد دورتين قطع فيهما حديقة الفندق الجرداء طولاً وعرضًا، عابرًا موائد وكراسي البامبو المتناثرة التي احتلت كل المساحات التي كانت خضراء بالحديقة.

على إحدى الموائد اجتمع الصبية في دائرة كبيرة يتناولون الشاي المشبع بقتامة تشبه صباحهم، بينما يخبطون أحجار الدومينو

بالإيقاع نفسه، على مقربة منهم كانت الغربان تتقافز، بينما وقف أحدهم - ربما يكون أكبرهم - على أحد أعمدة السور الفاصل بين الموائد والنهر، يراقبنا جميعًا.

عند نهاية السور، كانت إحدى الشجيرات المخضوضرة تحمل على قمتها زوج حمام غارق في المناجاة، وفجأة أفزعهما ما اضطرهما للطيران نحو الضفة الأخرى، التي كانت تظهر بيوتها البيضاء بصعوبة خلف كل هذا الكم من النخيل والشجيرات ومئذنة لم تصل بعد إلى السماء.

- ترى من يأخذني إلى هناك؟

وفي الوقت الذي اختفتْ فيه الحمامتان خلفَ أشجار الضفة الأخرى، كانت خبطات الدومينو تتصاعد، وأعداد الغربان تتزايد، وعيناي ترفان بعصبية وتبحثان في الوقت ذاته عن ذلك الهُدهُد الذي لم يعد يقطع ساحة الفندق سواء ذهابًا أم إيابًا، أو تستغيثان بأبلة "هدى" التي ذهبت مع أبلة "حياة" لشرب الشاي مع أبلة الناظرة الجديدة، ولم تعد منذ ذلك اليوم لتستكمل القصة التي ظلت ناقصة.

قنا - أغسطس ١٩٩٥

فراشات الحجرة

بالأمس لامتني "رضا" على تأخيري الدائم، وبكت.

منذ أسابيع وأنا لا أدخل البيت إلا في العاشرة، وبعد استغراق أمنا في النوم، أستهلك ساعات اليوم في رحلة البحث عن عمل، "رضا" تعرف وتدعو لي. كان صوتها مختنقًا بالدموع، وهى تتحدث عن اضطرارها للسهر حتى أحضر وآخذها في حضني،لم أكن قد استكملت بعد خلع ملابسي، تخلّصت يداي من القميص العالق بهما فسقط منهكًا على البلاطات العارية، بقيتُ مرتدية "الجيبة"، وجلستُ إلى جوارها على حافة السرير الذي أصدر أناته المعتادة، فارتمت في حضني وبكت بكاءً مريرًا، أغرقتْ "رضا" بدموعها كتفي، وقميصي الداخلي الأسود المزين بأكثر من ثقب.

بعد وقت، توقفت "رضا" عن البكاء، والتفتت لتطمئن إلى استمرار عنكبوت النوم الذي أطبق خيوطه بإحكام على أنفاس أمنا الملتصقة بالحائط، ولا يظهر منها سوى أصابعها القابضة على طرف اللحاف الذي تناثرت على ساحته البقع وجماعات من الذباب الأسود النائم في سلام.

حدثتني "رضا" في صوتٍ خافت عما مرّ، ثم اقتربت بشفتيها من أذني وأفضت إليّ بسرّها عن صديقاتها، أشارت لي بأصابعها التي تشبه عيدان الكبريت، إلى ما فوق اللمبة "النيون" التي تنير حجرتنا بضوءٍ أبيض باهت تحجبه الأتربة وملايين النقاط السوداء من فضلات الذباب، حاولتُ الابتسام وأنا أهدئ من فوران بركان دموعها الموشك على الانفجار مرة ثانية:

- أنا آسفة، مش هاتأخر كده تاني، بس إدعيلي إني ألاقي شغل.

هزّت "رضا" رأسها بالموافقة، وانكمشتْ بين ذراعي ونامتْ، بينما كانت أصابعي تتسلل لتمسح على ظهرها تحت قميصها "اللينوه" الذي يضج برائحة الحلبة واللبن، شعرتُ ببروز عظامها أكثر من ذي قبل، كررتُ اعتذاري، ولم أعرف هل سمعَته "رضا" قبل أن تنام، أم لا؟

في ذلك الصباح الذي يتشابه مع كل الصباحات التي مرّت، تسللت كالمعتاد من بين ذراعي "رضا"، بصوت هامس طلبتُ من أمي، التي كانت مستيقظة، أن تصنع لي شايًا، فرفضتْ متعللة بتعبها، ذكّرني صوتها بتلك الكرات البيضاء التي تشبه الثلج، والتي نزفها أنفي ليالٍ في أثناء نومي وأغرقت بلاطات حجرتنا العارية، عرفتُ من

"رضا" أن أمنا بذلت جهدًا كبيرًا لكشطها ولم تُفلح تمامًا، كانت "رضا" التي لا تستطيع الحركة قد طلبت من أمنا نقلها من السرير إلى أرضيه الحجرة لمساعدتها، كانت "رضا" تلمس الكرات فتذوب متحولة إلى دماء حمراء تبتلعها بلاطات الحجرة.

كنتُ استكمل ارتداء ملابسي بينما عيناي تبحثان عن جوربي الشفاف، في إحدى زوايا الحجرة وجدته منزويًا وحيدًا، تذكرت أن إحدى "فردتيه" تمزقت بالأمس، فصنع التمزق عمودًا صغيرا خاليًا من النسيج، حاولتُ في أثناء ارتدائه إخفاء التنسيل إلى الداخل بعيدًا عن الأنظار، ولكن أصابعي المتعجلة ساهمت في تعميق المجرى وامتداده من مقدمه الجورب وحتى نهايته.

– أنا تعبانه موش قادرة خلاص.

هكذا ترجمتْ أذناي رنين صوت أمي الصادر من حنجرتها الفارغة، كتمتُ غيظي كي لا أرد حتى لا أوقظ "رضا" والجارات المتنمرات لقصة.

وقفتُ أمام المرآة أجمع خصلات شعري الشائكة، بينما تتابع عيناي حركة شفتيّ اللتين كانتا تأمران تلك المرأة ذات الصوت المعدني بالصمت.

كانت صورتها تصل إلى أعماق المرآة المعلقة على إحدى "ضلف" الدولاب الواقف بصعوبة مرتكنًا على الحائط، كانت جالسة تحت اللحاف لا يظهر منها سوى رأسها المغطى بإيشارب جلبته لها جارة حملتْ لقب "الحاجة"، افترشت أرضيته باقات وردٍ قاتمة اللون، أسفل الإيشارب كان وجهها قد تكسر جلده وتجعد منذ زمن، ربما قبل وفاة أبي الذي كان يلعن حظه كل صباح ويتساءل عن السبب الذي أوقعه في امرأة مثلها، متحسرًا على زوجته الأولى العقيم بنت الأكابر.

كنتُ اسمعه يُردد دائما العبارات نفسها، وأعترف أن خجلي كان السبب الوحيد وراء عدم مصارحته بالحقيقة. إنها المرأة الوحيدة التي يمكن أن توافق على الزواج من عامل فقير مثله، في الحجرة الباردة نفسها التي تُصر على شرب دمي كل مساء كوطواط لا يشبع أبدًا، وأقف فيها يوميًا أمام الدولاب نفسه الذي اشتراه لها مع السرير النحاسي من أحد باعة "الروبابكيا". كان جسد الدولاب يخفى وراءه عشرات الثقوب والحفر التي تكشف عن طوب الجدار الأحمر الذي ينز دماء يومية.

بعد رحيل أبى، انتقلتُ مع "رضا" من المرتبة الأرضية الموضوعة أسفل سرير الحجرة النحاسي، إلى المرتبة العلوية حيث كان ينام أبى مع أمي، وتصلنا أصواتهما كل مساء، هناك تقاسمنا مع أمي السرير، والناموسية، والحجرة، ومعاش أبى، والذكريات التي تهجم على السرير حاملة صدى صوته.

قضت "رضا" أسابيعها الأولى على السرير شبه نائمة تحلم بأبي الذي كان يأخذها إلى حضنه كل مساء، وينزل ليشترى لها أصابع البسكويت الرقيقة التي يصنعها عم "حنفي" بيديه من عجينة الدقيق والسكر ليبيعها لأطفال شارعنا، وكثيرًا ما سرّبت إليّ "رضا" بعضًا من هذه الأصابع التي تذوب في الفم دون جهد، أما أمي فكانت ترفض تناولها معقبة بقولها:

– وأنا إيش عرفني هو بيعملها إزاى ؟

ظلّت "رضا" تبكي مساء كل يوم ولا تكف حتى أحضر من مدرستي، واحتضنها لتنام ودمعتها على خدها، وكنتُ أتعجب من تلك الحرارة المنبعثة من جسدها، التي كانت تتسبب في تبخر ماء دمعها الذي يبلل قميصها الوحيد فتتكون سحب دافئة تنتشر في الحجرة فلا نحتاج للغطاء ونتركه لأمي.

كانتْ أمي تشغل يومها بحكايات مسلسلات التليفزيون وتبادل النقيق مع الجارات حول أحوال الطقس عبر شرفتنا، بينما "رضا" جالسة تحت قدميها ترعى أصص الصبار وأعواد الفل التي أغرت العصافير بزيارة شرفتنا باستمرار لالتقاط حبات الأرز من كف "رضا"، وسرعان ما نَمَتْ صداقة بينها وبين العصافير، فدعتها "رضا" لنقل العش الكبير إلى الحجرة أعلى اللمبة النيون حيث تسكن فراشات أبو دقيق التي تحوم مساءً حول ضوء النيون مؤنسة وحدة "رضا" حتى أعود.
قالت لي "رضا" إن العصافير اعتذرت ودعتها للطيران في الوقت الذي تريده.

هذا الصباح أغلقتُ خلفي باب الشقة بشدة، وصلني بكاء "رضا"، بينما كنتُ أتخلص من رائحتها وصوت أمي الحاد على درجات السلم بعدما اكتشفت أن حملهما معي يجعلني عاجزة طيلة اليوم عن الدوران بكفاءة، اندفعت إلى الشارع مسرعة ليلحق بي نداء "رضا" ويمسكني من ياقة قميصي.
كان رأسها يطل من بين أعواد الحديد السوداء المصنوع منها سور شرفتنا، كان رأسها يبدو كأنه منفصل عن جسدها النحيل الذي اختفى خلف الملاءة المربعات الباهتة التي أحاطت بها أمنا أعواد شرفتنا الحديدية السوداء، ولم تجد سوى أشرطة شعر "رضا" الملونة لربط أطرافها بحافة السور.

كررت "رضا" نداءها باكية:

- خذيني معاكي.

من شارعنا الرطب التقطتُ حجرًا صغيرًا وقذفته إلى أعلى، تابعته "رضا" بعينيها اللتين سرعان ما سقطتا لتتابعا مصير الحجر على الأرض الغارقة بماء الاستحمام الراكدة، ابتسمت من بين دموعها وودعتني، كانتْ كفها صغيرة جدًا تبدو كنقطة وهى تلوح لي مودعة وتمسح بكفها كل المكتوب في دفاتر عقلي، حاولتُ البحث في ذاكرتي عن عدد سنوات عمرها فلم أتذكر سوى أنها شقيقتي التي لا تكف عن البكاء والأكاذيب ومع ذلك أحبها.

شجعتني ابتسامتها الخجلى على السير، استدرت في اتجاه الميدان متخلصة من رائحتها وصوت أمي، ولكن لم يفارقني مشهد العصافير التي تراصت على سور شرفتنا الحديدي ضاربة بأجنحتها مودعة إياي مثلما فعلت "رضا".

في مساء ذلك اليوم عدتُ إلى المنزل فوجدتُ المدخل مُعتمًا كعادته، أفلتتْ منى صرخة مكتومة عندما اندفعت قطه سوداء يتبعها ذكرها، ومرا على قدمي، لزوجة فرائهما المفاجئة أشعلتْ القشعريرة في جسدي.

كالعادة، أرجأت أمي إشعال مصباح السلم إلى وقت متأخر حتى لا تستهلك مزيدًا من كيلوات الكهرباء.

استعنتُ بأصابعي على السلم، تحسستُ حقيبتي السوداء وأخرجتُ من بين محتوياتها مفتاحي ذي الملمس الخشن ورائحة الجبن المتعفنة العالقة به والتي تصيبني بالرغبة في القيء، بالخبرة والتكرار أدخلتُ مفتاحي في ثقب الباب، وأدرته عده دورات حتى انفتح، واجهتني روائح الصالة الفارغة.

كانت رائحة النوم راكدة، تخلصتُ من حذائي أمام الحجرة واصطحبتُ حقيبتي ورائحة النوم، امتدت يدي إلى مفتاح النور، فانتشر الضوء ثقيلاً كرائحة عطر أمي الذي تشتريه من عم "محمد" الحلّاق.

كانت أمي نائمة ومغطاة بلحافنا، وعلى أرضية الحجرة تناثرت فراشات أبو دقيق البيضاء ساكنة، حرصت ُعلى المرور على أطراف أصابعي، فاشتبكتْ قدمي اليسرى بسجادة الأرضية القديمة التي تفسختْ خيوطها من زمن بعيد، سقطتُ محدثة صوتًا أيقظ أمي.

برودة البلاط سرَت إلى جسدي فاستكان لساني، بينما كانت يداي تنفضان ما علق بهما من بقايا الفراشات الميتة، مسحتهما في جلباب أمي الأسمر المفرود على الكرسي الخيزران كخيال مآتة.

سألتها:

- أين "رضا"؟

من حنجرتها جاءني رنين صوتها الذي منحنى كميه برد إضافية:

- مش عارفة.

وغاصتْ تحت اللحاف مره أخرى.

خرجتْ دموعي كرات ثلج بيضاء تكاثرت على أرضية الحجرة، وتكثف إحساسي بالبرد.

جلستُ وأشعلت "وابور" الجاز، وبدأتُ في حرق فراشات أبو دقيق الميتة واحدة بعد الأخرى. كان دخانها مشبعًا برائحة الحلبة واللبن مما اجتذب أسرابًا من العصافير التي كانت تطل من خلف زجاج الشرفة وتخبط بجناحيها كأنها تدعوني للطيران.

ورويدًا تسلل الدفء إلى عظامي، ولم أفق إلا بعدما رأيتها تلوح مودعة إياي مثلما فعلت "رضا" في صبيحة هذا اليوم.

المطرية

فبراير ١٩٩٦

- **أوجاع ممكنة :**

- **ملائكة تتخبط**
- **صور متحركة**
- **الموسيقى لا تكف عن الدوران**

ملائكة تتخبط

ودّعتها أُمها مُبَسمِلة ومحوقلة ونافثة في أذنيها بخور الأعراف والتقاليد، ابتسمتْ "أمل" وأكّدت لنفسها أنها أقوى مما تظن أمها، أعادت على مسامع قلبها الفرمانات التي انتوت تنفيذها: ألا تراه، أو تسمع صوته، أو تستمع إلى مطربه النحيل المفضل، وألا تُدندن بموسيقى أغنية أعجبته وأهداها لها في ما يطلبه المستمعون يوم نجحتْ مساعيه لدى أحد جيرانه الطيبين في توفير عمل مؤقت لها بإدارة الشئون القانونية بوزارة المالية.

أكدت لنفسها على ضرورة التنفيذ، وكررتها ثلاث مثلما تمتمت ثلاث بالمعوذتين وقل هو الله أحد، ورجت ربها المساندة والهدى.

في المكتب الذي تشاركها فيه زميلات أخريات، جلستْ تمضغ معهن الحكايات عن أبريل المتقلب وشمسه المدللة، وملابس الصيف الجديدة، ابتسمن لرؤية "نور" الساعي النوبي العائد من إجازة شهر عسل قصيرة، خُيل لها أن وجهه كان مبتسمًا وممتلئًا عن ذي قبل.

سألها عما تريد شراءه من الخارج من طعام أو شراب، ناولته الإجابة وتبعته بنظراتها المتسائلة: هل بالفعل يتمتع كل أصحاب البشرة السمراء بشراهة جنسية لافتة؛ كما جاء على لسان أحد الرجال السود في فيلم السهرة الأجنبي بالأمس؟

تصفحتْ "أمل" ملف الأعمال المطلوبة، ومنها استكمال التحقيقات لتوقيع الجزاءات على الموظفين المشاغبين، والإشراف على كتابة القرارات التأديبية على الآلة الكاتبة، وأوامر إدارية أخرى كثيرة لا يَكف عن إصدارها مدير الإدارة المنتفخ كالديك الرومي المحتل لشرفتها منذ شهور طويلة؛ ترعاه أمها في انتظار عيد أو ضيف لا يجيء.

خوفها من ثرثرة المحيطات وحسدهن الواضح لبعضهن البعض، وتجاربها الفاشلة السابقة دفعتها لإخفاء خبر تقدمها للعمل بأحد مكاتب المحامين الكبار، ولكن ارتداءها لأفضل ملابسها وتأنقها الطارئ، دفع الزميلات إلى إبداء إعجابهن وتعجبهن ومواجهتها بسؤالهن عن سبب "شياكة اليوم"، لحسن الحظ توقفتْ أفواههن التي لا تكف عن الكلام أو التهام الطعام عندما رن جرس تليفون المكتب، ونادتها رئيستها وهي تهز رأسها بإيماءة تؤكد جهلها بصاحب الصوت على الطرف الآخر، وتعكس فضولها الغبي في الوقت نفسه.

همستْ برفق: السلام عليكم.

من سماعة التليفون أطل صوته بابتسامته الودودة يسألها عن صحتها التي كانت متوعكة، تناست "فرماناتها" وأقنعت نفسها سريعًا بأنها لن تستطيع رفض محادثته أمام عيون زميلاتها المتوثبة، وإلا وجدن مادة خام لجلستهن.

استندت إلى ركن الحائط المجاور لمكتب رئيستها، وبدأت في الحديث...

اندفعت الكلمات من بين شفتيها لترسم له في النهاية خريطة أخبارها، بثته هامسةً مخاوفها وضيقها وحنقها على عملها الحالي، وقبل أن تستكمل كل ما تود قوله. قاطعها:

- ليكن.. مع السلامة.. ها كلمكم بعدين.

وضعت السماعة برفق، وقالتْ دون أن يسألها أحد:

- معلش.. أصل الخط انقطع.

ظلتْ واقفة إلى جوار رئيستها منتظره الرنين التالي، ومفتتحة حوارًا حول أشياء لم تلفتْ قط انتباهها كالبريق الأخاذ لطاقم المكتب الجديد من الجلد الطبيعي، أو سوار رئيستها، وجمال غطاء رأسها المزركش... انتهزت مديرتها الفرصة وحثتها على ارتداء الحجاب، بينما كان عقلها هناك يبحث عن السبب وراء التغيير في نبرة صوته.

عندما دق جرس التليفون الداخلي رأتْ من واجبها الرد عليه، وهي الواقفة إلى جواره، رفعت السماعة لتتخلص من المكالمة قبل رنين التليفون المباشر، على الطرف الآخر كانت "إيمان" إحدى صديقات الدراسة القدامى، والتي تعمل بإدرارة العلاقات العامة بالوزارة نفسها، استمعت "أمل" إليها دون اهتمام وهي تسأل عنها وعن أحوالها، ثم اندفعت "إيمان" في الحديث عن اختفائها في الفترة الأخيرة وعن انشغالها في العمل، وغرقها في دوامة من المشكلات مع زوجها وأهله، دخلت "أمل" من بوابة المقارنات، الجميع منشغلون عنها بمشاكلهم، بينما هو الشخص الوحيد الذي لا ينشغل عنها أبدًا، يحرص على السؤال عنها ومتابعة تقدم حالتها النفسية المتوترة بعد صدمة فراق جدتها المريضة وسفر أبيها، كان يحاول دائمًا إخراجها من دائرة الاكتئاب التي تدخلها من حين إلى آخر نتيجة هموم البيت وإخوتها الصغار وعملها الذي يحفظ ماء وجهها من السؤال، والإدارة التي تبتلع كل من تشده قدماه ناحية ضفافها.

أفاقت "أمل" وهي تضع بين شفتيها طرف عقد التف حول رقبتها أهداها إياه، بينما صوت "إيمان" ينصحها بالصلاة، واستخدام "ليدوميل - ٢٥ مللي" مانع الاكتئاب، لأنه أخف وطاه من الأدوية الأخرى. كانت تود لو صرخت:

– مش ناقصة نصايح.

ولكنها كالعادة كتمت صرختها واستمعت إليها حتى انتهت من وصلة نصائحها وحديثها عن مشاكلها التي لا تنتهي.

وبعد أن حددت (إيمان) لنفسها موعدًا تلتقي فيه "أمل"، لتعرف أخبارها بالتفصيل، وضعت أمل السماعة وملأت رئتيها بهواء جديد.

دقائق طويلة مرت قبل أن يرن جرس التليفون، وبلهفة حرصت على إخفائها رفعتْ السماعة ليصلها صوتُ "هاشم" معتذرًا بأدبه الجم عن طريقة إنهاء المكالمة، مقسمًا بالله وبأعظم الأيمان أن السبب هو اقتحام المدير مكتبه للسؤال عن بعض الأعمال المؤجلة. سعدتْ بإلحاحه في الاعتذار، واتسعتْ ابتسامتها عندما استدعت صورته إلى شاشة الذاكرة بوجهه الأسمر المتورد وأذنين يكاد الدم أن يندفع من غلافهما الجلدي، على استحياء طلب منها أن يلتقي بها في "الكافيتريا إياها" مكانهما المفضل منذ أيام الجامعة.

هناك كانت تجلس صامتة تستمتع بضجيج زملائهم المشاغبين وقفشاتهم التي لا تنتهي وموضوعها واحد لا يتغير: "أساتذتهم"، بينما هو يتابع نفخ دخان "الشيشة" المشبعة برائحة التفاح، معلنًا كل مرة عن رغبته في الاستعاضة بها عن دخان السجائر، فلا يكف عن الجمع بينهما.

أكد لها أنه يهوى هذه الكافيتريا لأنها تشبهها: بسيطة وجميلة ومفعمة بالشجن والذكريات. على مضض لم تحاول إظهاره، وافقت على اللقاء.

قبل انتهاء فتره العمل الرسمية خلا المكتب بالتدريج من سكانه، إلا هي، أنفقتْ بقية الوقت في الاطمئنان على حاجيتها المكدسة في داخل حقيبتها الصغيرة، أخرجت أدوات ماكياجها القليلة، ومرآة تحتفظ بها في درج المكتب الخشبي المخصص لنساء المكتب، والذي يضم إسدالاً وسجادة صلاة، أضافتْ قليلاً من أحمر الشفاه إلى وجنتيها، ووزعته بأصابعها، ومزيدًا من محدد العين الذي قد يُضفي عمقًا أو بهجة إلى عينها المتعبتين، وعلى الرغم من هذا، كان بريق الأسى مازال لامعًا بالداخل، تساءلتْ وهي تجمع أشياءها:

– تُرى من أي شرخ في النفس تهب كل رياح الحزن هذه؟

تحسستْ حمالة صدرها بهدوء، واطمأنت إلى وجود حجابها المثلث الذي جلبته لها أمها من أحد الشيوخ الذين يرتادون سوق الخميس، الذي تحرص أمها على زيارته كل أسبوع لشراء مستلزمات البيت، وعندما سألتْ أمها عن محتواه أجابتْ بأنه يضم وريقات كتبها الشيخ للحماية والهداية، رشتْ قليلاً من عطر، واستعدتْ للمواجهة.

في الطريق، اطمأنت إلى قائمة الممنوعات التي ستتلوها بمجرد جلوسه قبالتها، قبل الموعد المحدد، كانت تجلس إلى مائدتهما المفضلة، مستندة إلى الحائط الزجاجي، بينما فوق رأسها "إبليك" خشبي وصفه "هاشم" يومًا بأنه "خفيف الدم"، كان الإبليك يشبه مصباح علاء الدين، ولكنه خال من المارد الذي وضعوا بدلا منه لمبة خضراء صغيرة.

بينهما ما لا تستطيع تفسيره أو وضعه تحت لافتة: علاقة تكللها الراحة والمتعة أيضًا، ترى هل يكون هذا حبًا؟

توترتْ عندما لمحته يدخل من الباب، وحاولتْ استعادة هدوئها أمام سمرته الطيبة، وتنازلتْ عن حدتها، عندما مد يده بإيقاعه الهادئ إليها وقد جلب معه الابتسام ونحافته الظاهرة وقالب الشيكولاتة الذي قالت له مرة أنها تهواه، قائلاً:

– ألم تقولي من قبل إن التفاصيل الصغيرة هي التي تُعيد تشكيل حياتنا الصخرية فتتحول دون قصد إلى لوحات حية.

قالت بسرعة تؤكد حماقتها المتأصلة:

– أرفض أن أكون شيئًا صغيرًا.

ضم حاجبيه باسمًا وهز رأسه بالنفي. سألته عن ابنة عمه، خطيبته، فسألها عن عملها المرتقب والمقابلة التي ستجتازها بعد قليل، تحدثت عن بطالتها المقنعة ورغبتها في العمل "بحق وحقيق"، وقبل أن يعرج الكلام دون إرادتها إلى منحنى الضيق والكآبة والزهق من المكاتب المعتمة وثرثرة موظفيها، التقطها "هاشم" مُثنيًا على أناقتها، ولم ينس تشمم الهواء المحيط بها مؤكدًا على تأثير عطرها على قوة أعصابه. تعجبت متسائلة:

- والله ؟!

كرمش صفحة أنفه ساخرًا من سذاجتها، وأشار للجرسون. تناول معها أكوابًا من الشاي والقهوة والنسكافيه استثمارًا للوقت المتسرب، بينما نور الشمس المنسحب عبر الزجاج ينبهها إلى موعدها، استمرت في محاولة فرقعة صوتها لترهب عيونه المتلصصة بحثًا عن كوة ضعف يتسلل منها، نبهها إلى صوتها العالي، وحذّرها من استخدامه أمام مدير العمل الجديد، لم تملك سوى مداراة خجلها بإطراقة طويلة إلى سطح مائدتها الرخامية المستديرة، بينما يقول:

- أنا عارف إن صوتك أهدى من كده بكثير.

قال لها: إنه يراها الآن في منزل يضمهما، جالسة إلى صدره تداعب طفلاً.

قالت: يُزعجني الأطفال، وحوّلت وجهها إلى اثنين من الطلبة عاشقين تشابكت أصابعهما في صمت.

يبدو توترها واضحًا في برودة أطرافها، ترتعش أسنانها دون سبب، تقوم بسحب كفيها العاريتين إلى داخل أكمام البلوفر الشتوي، يسألها عن السبب، تتعلل بالجو، يُصر على اصطحابها إلى موعدها.

أمام الكافتيريا، استوقف سيارة أجرة خالية إلا من سائقها بينما تؤكد له أمل بصوت خافت أن "الميكروباصات" الرابضة على بعد خطوات بميدان العباسية يمكنها أداء المهمة نفسها بخسائر مالية أقل، نظر لها، فانصاعت ودخلت إلى كهف التاكسي الخلفي وهو من ورائها، وعن قصد اتخذ موقعًا لصيقًا بها تمامًا، على فخذه وضع يده المفتوحة طالبًا دون كلام يدها، ولكنها أمعنت في إخفاء يديها داخل أكمام "البلوفر".

طلب "هاشم" من السائق فك ورقته الحمراء بعشر أوراق من اللون البيج الفاتح. التقط "هاشم" قلمًا من جيب سترته مستغلاً طول فترة الانتظار في إشارة مرور وكتب لها:

"ليل ونهار

ومدينه مجنونة

وميكروباصات

وانتظار

وأبريل الكاذب يختفي وراء قلبين صادقين

وحنين فذ..."

غير أنه لم يشأ التوقيع باسمه، ترى هل كان خائفًا ؟

تتذكر فجأة قائمة ممنوعاتها وتفضي إليه بها قبل أن يستقلا مصعد العمارة الشاهقة المطلة أبوابها على الحديقة الدولية، لم يجد بدًا من الموافقة.

حركة المصعد البطيئة زادتها توترًا، فابتسم وهو يؤكد لها أنه لن يفعل ما يضايقها، والتصق بحائط المصعد بعيدًا عنها، بينما هي تدق بأطراف أصابعها على جدار المصعد الأملس.

على المقعد الجلدي الفسيح الذي يتصدر حجرة الاستقبال جلستْ بجواره، ومعه تتابع الأنيقات الجالسات.

عندما دعتها السكرتيرة الحسناء التي كانت تكشف عن أكبر قدر ممكن من ساقيها إلى الدخول عبر باب المكتب الفخم، تساءلت عن رد فعل الجميع لو تراجعت؟

بعد خمس دقائق خرجتْ تُظللها سحابة من الضيق والكآبة، تُبشر بالنتيجة، سبقها إلى الخارج ليتلقاها باشًا قبل أن تنهمر دموعها الواقفة على بوابتي جفنيها، وأمام باب المصعد لحقتْ به "أمل" صامتة، وبهدوء مدت ذراعيها لتطبق بكفيها على جنبيه وكأنها تمتص منه القوة، ألقتْ برأسها على صدره فسمعته من بين دموعها وهو يغمغم: ولا يهمك.

داس بأطراف أصابع يده اليمنى على زر استدعاء المصعد، بينما هي تستند على ذراعه الأخرى بجوار القلب تمامًا. دخلا إلى المصعد الخالي ورأسها تقريبًا على صدره، لم تشعر ببطء حركة المصعد الهابط ولا توترت حين ضمها بذراع واحدة، بينما انطلقتْ ذراعاها تجوسان في الفراغ بين سترته وقميصه، وملتفة حول خاصرته، كانت يداها مصرة على لمس عظام ظهره البارزة كأجنحة ملاك مطمورة تحت الجلد، ودّتْ لو شقت صدرها واحتفظت به داخل قفصها الصدري.

عندما توقف المصعد في الدور الأرضي، ضغط "هاشم" على زر الدور الأخير. كان المصعد يعلو بينما ضلفتا عظامه الخلفيتان تنبتان كأجنحة ملاك، وتشقان ملابسه، و"أمل" على صدره متكئة.

العباسية – أبريل ١٩٩٥

صور متحركة

(١)

طلبتْ منه أن يقول لها إنه يحبها، فابتسم.

مدّ يده ليضغط المسافة بين امتداد كتفيها إلى أصغر مساحة ممكنة كي يحتويها بين كفه وضلوعه. من اليمين يحدها قلبه، ومن اليسار يحدها مقعد خال، وحائط مغطى بعوازل الصوت.

ضمها لدرجة الألم. مالتْ عليه، وألقتْ بجملة في صوان الأذن المحاط بشعيرات نَمَت في غفلة منه، ونسى حَلاقه أن ينتزعها بخيطه الذي يعرف طريقه جيدًا حَرِصت ألا يسمعها الآخرون وهى تقول:

— لو سمحت شيل أيدك.

ضغطها أكثر علّها تصمت، من الوضع نفسه، كرّرت ما قالت.

قبل أن تنفرج يده تاركة جناحي العصفور، توقفتْ الصور المتحركة أمامهما، وبينما كان ينظر إليها عاتبًا، كانت هي تتابع ظهور لوحة "فاقعة" الخلفية احتلتْ كل الشاشة العريضة، وعليها تناثرت في تتابع سبعة من حروف الهجاء السوداء:

ا

س

ت

ر

ا

ح

ة

تدريجيًا، أضاءت القاعة، ورأته يجمع يديه المتسللتين ويربطهما أمام صدره في عقدة كبيرة، أما ركبتاه فقد انجذبتا إلى بعضهما لكي تغلقا زاوية ساقيه المنفرجة، بينما كانت عيناه تنظران في اهتمام للأمام.

عندما خفتت الأضواء ثانية، واصلت الصور ركضها على الشاشة الكبيرة أمامها، تتلاشى كل الأصوات فلا تسمع سوى حشرجات.

المشهد أمامهما يضج بالدماء: بطل الفيلم مصاب بطلق ناري وبجانبه صغير يحتضنه بقوة.

بكتْ كما لم تبكِ منذ زمن، كتمتْ شهقتها وتشنجات دمعها، امتدت يده إلى رقبتها تمسح الدموع النازلة بعنف مؤكدة على أفعال قانون الجاذبية، توالت الدموع وانزلقت فتعقبتها يده، تسللت اليد خلف الدموع. كان عبثًا يمسح الدموع المتراكمة في وادي صدرها.

وبينما عيناها تضخان المزيد، كانت أصابعه تمرح هناك.

(٢)

تجمعت السيارات تحاول الخروج من رحم الطريق، مازال الضوء الأحمر مُصرًا على التواجد، وإخراج لسانه لجميع السائقين الغارقين في عرق وزحمة أغسطس.

كانت تكره الدم، والكذب، وضجيج المحركات الرابضة التي تزوم من حولها، وأغسطس الذي شهد وفاة أحبتها حتى الموجودين منهم على قيد الحياة.

اعتذرت عن بكائها في أثناء الفيلم، تمتم راسمًا علامات الضيق على وجهه:

- مفيش مشكلة.

اعتقدت أنه يريد تعويضًا مقبولاً، قبّلتْ خدّه، نظر إليها في دهشة، قالت له: أحبك، فأجابها: باموت فيكِ

تساءلت: ولماذا اقتران الحب بالموت؟

ضايقه صمتها، فامتدت يده لتداعب ذراعها العاري، وتجذب شعيرات صغيرة نمت تحت إبطها، لم تعجبها الإجابة، حدثته عن زهرة (البانسيه) التي لم تمر عليها من قبل، ولم تعرف يومًا الطريق إليها،

ولم يرسل لها أحد منهم باقة منها، ولكنها تعرف معنى الاسم جيدًا: "اذكريني".

ضغط على دواسة البنزين، وهو يسألها عن لون زهرة البانسيه. قالت:

– لا أعرف.

ابتسم وتركها تتحدث عن الزهور التي تطاردها في أحلامها، ثم كرر السؤال نفسه:

– ما لون زهره البانسيه؟

كررت إجابتها، كان يحاول أن يشق لسيارته طريقًا عندما فتحتْ باب السيارة المسرعة، وألقتْ بنفسها إلى أعلى تاركة مكانها زهورًا غير مألوفة، مجهولة الاسم وعديمة الرائحة.

النزهة

أغسطس ١٩٩٤

الموسيقى لا تكف عن الدوران

- لابد وأن تشرب شيئًا.

- إذًا، أريد قهوة زيادة.

أهاتف الساعي، وأطلب فنجانًا من القهوة "الزيادة" له، وآخر "دوبل" بلا سكر لي.

كان الكوب هناك فوق "الرف" الخشبي الأبيض، يشكو وحدته بعد أن انقطعت عنه الموسيقى، منذ جلبته معي قالوا: إنه فريد بتلك الموسيقى التي يعزفها.

لا أدري كم من المرات لمعتْ دهشة الزائرين الذين كانوا يبحثون بأعينهم عن جهاز تسجيل أو سماعه تتدفق منها تلك الأنغام المجهولة، ولثوان أتابع حيرتهم مستمتعة، ثم أُشير إلى قاعدة الكوب كي أبدد حيرتهم، ونبدأ العمل.

عندما دخل الساعي حاملاً صينيته "الاستانلس ستيل" تصاعدتْ روائح القهوة لتأخذ مكانها على حوائط الحجرة الصغيرة التي بلا نافذة، أغمض ضيفي عينيه، وتشممها مُعلقًا: رائعة. ثم ابتسم للساعي

وهو يضع فنجان القهوة الصغير بزهوره الباهتة، وطبقه الذي انفلتت من طرفه قطعه خزف صغيرة، وعلى المكتب هبط كوبي الخزفي الأبيض الصغير حاملاً قهوتي المرة، وعلى جدرانه الخارجية تجاورت قلوب ملونة كبيرة وصغيرة.

رشف رشفة من الفنجان الأبيض الصغير، انطلقتْ بعدها ضحكته حاملة موسيقى الفرح بأعوام عقده التي قاربت على الانتهاء، قال:

– شهور، ويتم إطلاق سراحي من معسكر الأعداء، ستمر الأيام القادمة سريعًا، وأترك مدينتكم.

لم أكن بحاجة لان أقول له : أنسيت؟ إنها ليست مدينتي أيضًا.

علّقت أجزاءً من جسدي وجسد الوطن الذي أتمنى على جدران الحجرة البيضاء الصغيرة، وبقطعة من ورق أبيض مقو أغلقت العين اليسرى من نافذتي التكييف المطلتين عليّ من علٍ، تحتهما كانت هناك صورة لنخيل تنسدل أطرافه أمام عين الشمس الساقطة في حضن الماء لتطفئ ظمأ يوم حار من أغسطس، كل الأيام هنا أغسطس، وكل الأيام هنا يناير، شهران فقط يتعاقبان في نتيجة العام الذي لا يمر.

"عام فقط، وأرحل عن هذا المكان"، هكذا قلتُ لمن هنأني، وسألني عن مدة العقد.

مرّت ثلاث سنوات، والعام لم ينته بعد.

- أوف.. استغفر اللّه العظيم.

قُلتها نقية، ساخنة بحرارة الدمع الذي أسكبه ليلاً عند أقدام اللّه، وعلى كتف الليل الذي يُشاركني وحدتي. رغم ضيقي، ابتسمتُ لعينيه الفسيحتين وللبريق الذي أضاء بياضهما الرائق.

كان لقب "امرأة الفصول" يُطاردني، وأنا أنتقل من حال إلى حال، تمنيتُ لو توقفتُ عن الركض، وناجيته متسائلة: تعال، اقترب، ألا تريد أن ترى؟! ألا تريد أن تسمع؟!... ولكنني لم أسأل.

كان يرغب في سماعي، عيناه على شفتين تغوصان في أحمر شفاه باهتْ لتتصيد الحروف قبل أن تخرج من بينهما مصبوغتين بدم الوحدة.

كنتُ ألوذ بالصمت، وعيناىّ في عينيه تتابعان بريق الحياة، وأتساءل:

- هل أتخلى عن نظارتي الطبية حتى أجعله يسمع الموسيقى بصوره أفضل؟!

قال:

- تعجبني الأطياف البنفسجية الممتدة على سطح نظارتك.
- إنها طبقة من الطلاء الشفاف ضد أشعه الكمبيوتر.
- تعجبني حركتها!
- إنها لا تتحرك، ماذا فعلتَ اليوم؟
- اتصلتُ بك لأراك، و ها أنا ذا أراك.

أسترسل وأنا أتحدث عن رائحة القهوة التي أعجبته وجدران الحجرة الصغيرة، وأجزاء الوطن المعلقة، تصطف الكلمات جنودًا في طوابير وخطوط ممتدة، أطارد بها الصمت، أكرر حكايتي عن ست الحسن والجمال الجالسة في برجها، الذي بلا باب ولا سلم عدا نافذة تركها الغول لتلتقط منها خيوط الشمس والهواء وتغزلها غطاء وأنينًا وحنينًا. يسمعها الشاطر حسن، ويتسلق البرج على ضفيرتها. يقاطعني:

– نساء اليوم تخلصن من الضفيرة، ورضين بسكنى الأبراج.

أخاف الصمت، أثرثر، وأستعير من حوارات الأفلام والمسرحيات جملاً تبدو ضاحكة، لا يضحك، وأضطر لشرح ما قلتْ كي يجاملني بابتسامة ضيقة الروح، قصيرة العمر، أصمت، فيقول:

– لا أريد لنارك أن تخبو.

أبتسم الابتسامة التي أشعر بمرارتها على لساني، قبل أن تشق طريقها إلى الشفتين.

– تُرى أين سمعت مثل هذه الكلمات من قبل؟ هل تشاهد الأفلام كثيرًا مثلي؟

العينان الفسيحتان تضيقان، وظلال الحاجبين المقترنين تنتشر على أفدنة من الكلمات الشائكة التي أحصد ثمارها المُرة وحدي.

هل تعرف؟ دراستي انتهت منذ سنوات، وليس لي مدينة أعود إليها، لم يعد لدي ما أحلم به سوى الترحال، أترى تلك القلوب الملونة على خارطة كوبي؟! في كل مدينة أعبرها استبدل قلبًا من القلوب البيضاء بأخر ملون بالتجربة، أيهم تفضل؟

- تلك القلوب الصغيرة البيضاء ذات النقاط الحمر.

- أترى أنها القلوب البيضاء الوحيدة التي أصيبت بالحصبة.

نرفع نخب ضحكة مشتركة تحمل في نهايتها حروف الموسيقى: دو- ري- مي- هل تسمع تلك الموسيقى؟

بلعتُ قهوتي "المُرّة" الباردة التي نسيتها، وقلبتُ الكوب على رأسه، فظهرت تلك الفجوة الدائرية في القاع الخارجي، هناك كانت تدور، كلما رفعت الكوب لأعلى اسطوانة موسيقية صغيرة، تعزف موسيقى الأعراس: تا..لالالاه..تا..لالالاه...

اشتريته منذ زمن، وظلتْ الموسيقى تدور لسنوات، ومِن يد عامل لآخر تسربت المياه إليها، ظلتْ الاسطوانة تُقاوم الصدأ يومًا بعد يوم، حاولتُ مرارًا إعادتها للعمل بالضغط عليها بأصابعي كي تعاود العزف، نجحتُ في البداية ثم توقفتْ، منذ أيام اكتشفت صمتها المطبق، الذي اكتمل؛ ربما؛ منذ شهور.

نزعتُ القاعدة البلاستيكية، وحاولتُ إصلاح الاسطوانة الصغيرة. كانتْ البطّارية المعدنية الدائرية نائمة تحت طبقة من الصدأ، لم أُفلح في إيقاظها، فألقيتُ بها في سلة المهملات، ظلتْ الاسطوانة في الدرج، ولم أشتر بطارية جديدة، وبقى قاع الكوب فارغًا بلا موسيقى، يحمل القهوة المُرّة، وعلى جدرانه قلوبًا مسطحة صامتة بيضاء وملونة ومنقطة كانت ترقص منذ زمن.

– سأشتري لك واحدًا جديدًا.

وقال كلمات كثيرة ليربتَ بها على قلبي، انتهتْ كلماتُه ولم يجدني، كنتُ أجلس هناك تحت أطراف النخيل المنسدلة أمام عين الشمس الساقطة في حضن الماء، وحولي الموسيقى التي تدور حول نفسها، أسمعها ولا أستطيع الإمساك بها.

وسط البلد

يوليو ١٩٩٨

- **شجن خفيف :**

- **أوراق ملونة**
- **مفتاح حياة**
- **ولع الأحجار**

أوراق ملونة

في صبيحة يوم عيد الأم، استيقظتْ متأخرة عن موعدها المعتاد، ألقتْ بنفسها داخل ملابسها، وسمحت للحذاء أن يلتصق بقدميها، عند الباب تذكّرت شيئًا، أخرجتْ حافظتها وسحبتْ منها عددًا من الأوراق الملونة، نادتْ على أمها النائمة بالداخل، ثم أردفتْ قائلة قبل أن تتيقن من استيقاظها:

– كل سنة وأنتِ طيبة، النقود في الصالة. اشتر ما يحلو لكِ.

على السلم قفز إلى خاطرها مشهد أبيض وأسود:

طفلة في الصف الرابع الابتدائي، تعمل بجد واجتهاد للانتهاء من مفرشها الصغير المصنوع من قماش البفتة، على بياضه الناصع رسمتْ "أبلة الأشغال النسوية" وردًا وأفرع شجر بالقلم الرصاص، وبغرزة السلسلة والسراجة والحشو البسيط، ملأت الفجوات وجسَّمت الأفرع، وعندما اكتمل المفرش، حملته وذهبت إلى محل عم "حسين" المكوجي الواقع على ناصية حارة قريبة، ورجته أن يكويه لها قبل الغد.

في الصباح، أمسكتْ بالمفرش وغمرته خلسة بقطرات من زجاجة ماء الليمون "خمس خمسات"، التي يتفرّد والدها باستخدامها بعد طقوس الحلاقة المنزلية، بعد أن أنهت مهمتها، ذهبتْ إلى أمها ومنحتها قبلة كبيرة على جبينها، فأعادتها الأم شاكرة ومضاعفة على الخدين الحمراوين المكتنزين، بينما خرجت اليدان الصغيرتان من خلف الظهر حاملة المفرش الصغير، وكأن في الأمر مفاجأة للأم التي ظلتْ تُتابع ابنتها لأيام وهى تصنع المفرش غرزة بعد غرزة.

قبل أن تنتهي درجات السلم، كان المشهد القديم قد تبخر تمامًا، واحتلتْ مكانه عقارب ساعتها التي كانتْ تؤكد لها أنها قد تأخرت بالفعل عن مواعيد العمل الرسمية.

المطرية

مارس ١٩٩٤

مفتاح حياة

اسمها "فاطمة"، والاسم وشم، بقعة خضراء على ورقة ميلاد صحراوية، أغرقها الاسم – الذي حملته من قبل جدتها لأمها – بطوفان من السلاسل الفضية اللامعة.

على مدخل حياتها، أوصد الاسم بوابته المزخرفة المعشقة بمزاج صانع أظهر مهارته في فنون التشكيلات المعقدة، جاورت أمثاله من الصناع العواجيز القابعين بملابسهم الرثة داخل ورش كالخنادق في "خان الخليلي" عند المشهد الحسيني.

على درجات العمر الأولى تباهتْ بالصياغة وجودة التعقيدات، عند نهاية السنة العشرين تلاشت أضواء الزهو، وأدركتْ بعد وقوعها في الحب كم هي مقيدة خلف تلك البوابات الصدئة.

لم تطأ قدماها أرضه إلا منذ ليلتين وثلاثة أيام، صادقت روحه فتكاثفت بينهما غابات الثقة وتكاتفت، أهداها منذ نهاية المقابلة الأولى قلبا فضيًا، ومفتاحًا للحياة، وشلالاً من أحلام طال انتظارها.

- **في اليوم الأول :**

جمعتهما صالة فسيحة مع عشرات آخرين، أجهدت جسدها بالقفز هنا وهناك، تودد إليها فتعارفا، بعد قليل سقط منها اسمه في زحام البشر المحيطين، أما هو فقد حفظ اسمها في دير الذاكرة، قبيل انتهاء الحفل تحدث معها حول مدى التناقص بين حب وغدر البشر، أَلْقَتْ برأيها في بحيرة الحوار، وقفت على الشاطئ لتتحدث كالفلاسفة، قالت له تلك الحقيقة التي لا تناقض فيها:

– أؤمن بحقنا كبشر في الاختلاف، هكذا خلقنا الرب.

دون أن ينظر إليها ردد في خشوع:

– هكذا خلقنا فعلاً الرب.

- **في اليوم الثاني :**

أصبحتْ هي كما أرد لها الله معه: ثرثارة، نقية، بيضاء من غير سوء.

أرسله الرب ليقول لها:

– اسحبي يديك من القيد، ستصبحين حرة دون أدنى مساعدة.

فوق كوبري قصر النيل تحدث معها عن (يوسف) و(البحث عن سيد مرزوق)، والدنيا التي يجب ألا نعرفها بالأسئلة. قال لها:

– الحياة تستحق أن تُعاش

ارتدتْ "عُقد" الفل الذي اشتراه لها، وأغمضت عينيها لتطير.

▪ **في اليوم الثالث :**

في طريقهما لزيارة المتحف المصري، انفرط عقد الكلام فلمعت ساحة قلبه بلآلئ أسرارها، دنا منها وهو الجالس أمامها تحضنهما ضلوع جسد المترو، طلب منها أن تميل برأسها نحوه، وهى الأقرب إليه من حبل الوريد، همس في أذنيها معلنًا سره:

– أنا حبيبتِك.

نظرت إلى بطن رسغه الأيمن حيث مكان البقعة الخضراء كالاسم، كالوشم؛ فلم ترها، استدعت بذاكرتها المتثاقلة مشهد المسيح مصلوبًا بعد العشاء الأخير، لم تتناول عشاءها معه أبدًا، ولم تخنه.

مدّت ذراعي روحها، لم يلحظ دونها الأكبر منه نظرًا لانشغاله بتمتمة دعاء عندما مرّ المترو على "مار جرجس".

لاحظت أن الجالسين حولهما يتابعون ما يحدث منذ استفزتهم هالة الضحكات اللامعة فوق رأسيهما، كبلتها نظراتهم بالسلاسل من جديد، ونثرتْ عليهما بقعًا كبيرة خضراء، عندئذ فتحت "فاطمة" عينيها على اتساعهما واحتضنته بجفونها كما لم تفعل من قبل.

التحرير – يونيو ١٩٩٣

ولع الأحجار

تطاوعني أحجارُ الشارع، أركلها بمقدمة حذائي فتفعل ما أريد:
تتدحرج للأمام صامتة دون أن تئن، يُخيل لي أنها مولعة بقدَرها هذا.

أكرر الفعل عقابًا لها على صمتها، يختفي ولعي بقذف الأحجار، وتموت بهجتي وتتناثر مختلطة بتراب الرصيف، ينهرني السائر إلى جواري، اسمعه يتحدث عن "شكلي" أمام الناس، بينما أدفع بيدي داخل جيبي الجاكيت الأسود الذي يرتديني، وأغوص أكثر داخل "بلوفر" الصوف الأحمر الذي أرتديه، أدفن رقبتي كلها وجزء من ذقني في رقبته الوسيعة التي يمكنها ابتلاع رأسي بالكامل، وأترك شعري للهواء يتعاركان.

– لن أستطيع.

قُلتها، وتوقفتُ عن التقدم للأمام، تسمرت مكاني، بينما ظل هو في تقدمه، لاحظ توقفي فاستدار، سبني ولعن السماء، وأضاف:

– عنيدة وغبية.

وكأنما يسب امرأة غيري، دفعتْ بفمي في إثر رقبتي وذقني، بتثاقل ألقيتُ بابتسامة مبتسرة داخل رقبة البلوفر فجرحت الابتسامة قلبي. تركته واقفًا حيث كان، وعبرت الطريق وحدي.

أسير إلى جوار النهر الذي بدأ في استقبال جيوش المطر الهابطة من السماء. تذكرت تساؤلي القديم لـ"أبلة الدين": ما الذي يمنع الرب من النزول إلينا؟

أذكر كيف امتعضتْ لسؤالي وتجاهلها الدائم لي في أعقاب ذلك.

يخيل لي أن النهر يبتسم، أواصل صعودي بمفردي في اتجاه عكس الطريق المنحدر، لم أحاول النظر إلى الوراء، صرتُ متيقنة من أن المسافة بيننا تتسع... بعد دقائق من السير، ألقيتُ في النهر بآخر احتمال لإمكانية تعقبه لي.

تتكاثر قطرات المطر الهابطة فتنحدر من أعلى الطريق الذي أصعد إليه، تجرف المياهُ معها من أعلى كلِّ الأحجار التي بدأت في الاصطدام بقدمي محاولِةً إزاحتي عن الطريق حتى لا أصل إلى السماء.

الجيزة

مارس ١٩٩٧

- شوك محتمل :

- جسد حاضر
- عرق ملون
- روائح تسد الطريق

جسدٌ حاضر

" القلبُ لا يقوم بلا جسد،

بل لولا الجسد لفسد،

والقلبُ نور الجسد،

وآفتي قلبي وجسدي،

فكيف أنجو يا شيخي؟!"

• • •

اليوم الخميس، والأعمال المطلوبة مني قليلة، أستطيع تأجيلها حتى يوم الأحد؛ يوم الاجتماع الأسبوعي، لا أحد يهتم، المهم، ألا تتوقف عجلة العمل بحيث يبدو للرائي أن الجميع يشتغلون وينشغلون في عمل لا ينتهي، والحقيقة التي صرت أعرفها جيدًا أن التروس أصبحتْ تصدر ضجيجًا بلا طحن، سأفعلها إذن هذا الخميس.

ابتسمتُ دون صوتٍ أو إشارة، رنّتْ الضحكة داخلي ولم تتغير ملامحي حتى لا يظن بي زملائي الجنون. تشاغلت بري نبتة الصبار الصغيرة على مكتبي.

سأفعلها إذن هذا الأسبوع، مشتاقة جدًا لزيارته، صرتُ أؤجلها خميسًا بعد خميس، أخطائي الصغيرة تمنعني من الذهاب إليه، وانشغالاتي التافهة تعوقني عن اللحاق بركبه.. الحقيقة، لم أنشغل، بل صرت أتعمد التهرب من زيارته.

لا بأس، أعلم أنه يفهم أنني مازلت صغيرة على الدخول في عباءته. قال لي أحد رجاله: إنه يتعامل بحنو مع الخيول الجامحة. وعندما قلتُ: لستُ صغيرة، ولا جامحة، بل هي الدنيا. ابتسم ابتسامته الهازئة، وقال: ولماذا تقتربين خطوة، وتبتعدين بالمئات؟ قلبي معك يا صغيرة.

حاولتُ تنظيم سطح مكتبي قبل النزول، مزّقت كثيرًا من الأوراق التي لن أحتاجها، والتي تراكمت على مدار الأسابيع الماضية.

- من يأخذ عمري ويعلمني النظام؟

ابتسمتُ مرةً أخرى دون صوتٍ أو إشارة، وتساءلتُ متعجبة عن جدوى تلك المقايضة بعد موتي: أن تكون فوضويًا تتنفس هواء الحياة، أفضل ألف مرة من أن تكون منظمًا وأنت هناك تحت الثرى.

حشرتُ بقيةَ الأوراق في درج المكتب، ودفعتُ داخل حقيبتي السوداء الصغيرة "إيشاربًا" رماديًا من الحرير ومصحفًا صغيرًا أهداه لي زميلاً

في العمل في أثناء فترة لاح له فيها إمكانية تحويلي إلى حبيبة، يومها وضع المصحف على مكتبي قبل سفره إلى عمرة رمضان، فاكتفيتُ بابتسامة مُرحبة ومودعة متمنية له عمرة مقبولة.

– باي باي.. أشوفكم يوم السبت بإذن الله.

علّقتُ حقيبتي على كتفي بعد أن ألقيت فيها بمفتاح المكتب الصغير أغلقتُ "سوستة الحقيبة" وأنا أعدو نحو المصعد، اصطدمتُ بعم "حامد" الساعي، ابتسم بود وقال:

– مع السلامة يا أستاذة.

أمام باب المصعد، وقفتُ أنتظر، انشغلت بصنبور الموسيقى المفتوح فوق رأسي، كانت السماعة المثقوبة مثل مصفاة أمي الألمنيوم، تسكب موسيقى "ليلة القبض على فاطمة".

أين أنتِ يا "فاطمة"، يا صديقة أيام الطفولة الجميلة، لم أركِ منذ اختاروا لكِ الزواج والسفر مع من اختارك إلى بلاد غير بلادنا حيث يزرع جداول، ويحصد أرقامًا وحسابًا في البنك. يوم جئتُ أودعك ونحن مازلنا صغارًا، شممتُ فرحتك وزهورك بالحنة المرسومة على كفيك وباطن قدميك. أشرتِ بعينيك السوداويين وبضحكة، فجئتُ أتبعك. نصحتِني باللحاق بكِ، وأنتِ ممسكة بأصابعي تقودينها إلى

ركبتك كي أقرصك. لم أقس عليكِ - تكفي الأيام -، ولم ألحق بكِ، وبكيتُ عندما سألني أستاذ "حمدي" عنكِ، قلت له: إنك تزوجتِ، وسافرتِ إلى هناك. لكزني في كتفي وقال: هذا هو مصيركن، تزوجي أنتِ الأخرى، وارحمينا من بلوى أخرى.

بكيتُ، ولم أتحدث بعدها عنكِ علانية.

صرتُ أعرف أخبارك من أمك، وأدعو لكِ من حينٍ لآخر كلما تذكرتك وأنا أصلي، أو عندما أزوره، إنه يعرفك بالتأكيد، ويمنحك بركاته التي لا تنتهي لأنك تحبينه مثلي.

خرجتُ من بوابة المؤسسة، وألقيتُ خلفي بكل لهاثها وأرقها وتزاحم أفرادها على الركض نحو الجالسين على القمة بها.

تذكرتكُ يا فاطمة، ودعوت لكِ بالهدوء وراحة البال والخير الكثير لك ولأولادك الذين صاروا يملؤون الدار عليكِ وعلى زوجك.

أشرت بيدي إلى "تاكسي" خالٍ من الركاب، وأنا أصيح: "سيدنا الحسين"؟

قبل أن أكمل صيحتي الثانية، توقف السائق ثم تراجع للخلف الأمتار التي ابتعدها عني، وهز رأسه، تخيلته يقول: ماشي.

وكل ده وأنت موش داري يا ناسيني وأنا جنبك
حاولت كتير أقول واشتكي واقرب شكوتي منك
لقيتك في السما عالي وأنا في الأرض مش طايلك
كتمت الشكوى في قلبي وفطمت الروح على أملك

أكمل "عبد الوهاب" حتى:

وعِشْق الروح ما لوش آخر لكن عشق الجسد فاني

- بالذمة ده اسمه كلام.

هكذا علق السائق ليفتح بوابات الحديث، وكانتْ إجابتي صمتًا ثقيلاً فوق رأسه الحليقة مختلطًا بدخان سيجارة من علبته "المارلبورو" النائمة بدلال فوق "تابلوه" السيارة الذي كان يحوي في باطنه راديو كاسيت مضبوطًا على إذاعة الشرق الأوسط، عرفتُ ذلك عندما جلجلت بعد انتهاء الأغنية ضحكة "إيناس جوهر" متبوعة بجملة واحدة منها:

- والله ممكن، مش بعيدة.

ابتسم السائق، مؤكدًا بالتفاتة بدرت بتلقائية أن المذيعة تفهم مثله. ولم يُعلق بشيء بعدما شعر بثقل ظلي، حريصًا في الوقت ذاته أن يراقبني عبر مرآة السيارة.

جف حلقي، وبدأتُ الصلاة على النبي كما علمني شيخي:

(اللهم صل على سيدنا محمد نور عقلي وقلبي وعافية بدني وهداي وصفاء روحي ونجدتي ومددي وجلاء سري وبركة رزقي وشفيعي في دنياي و آخرتي وجنتي وسعدي ونور عيني ونعمة ربي للعالمين وعلى آله وصحبه وسلم، يا حبيبي يا رسول الله ويا حبيب حبيبي رسول الله رضي الله عنك، ومنحك ما تستحق)

على جانب الشارع الأزهر توقف السائق. انزلقتُ من العربة بعد أن منحته المعتاد من أوراق ملونة تساوي شيئًا، لم ألتفت إلى الباعة والشحاذين الذين احتلوا مدخل النفق الذي عبرته إلى الساحة.

عندما خرجتُ من النفق المظلم كان المسجد بجلال هيئته ولونه الضارب إلى الصفرة يملأ الميدان بنور، تسرب الدفء إلى برودة روحي، وبلعتُ اعترافاتي، لم أنحن لتقبيل يد شيخي الجالس هناك على مقهى "برهان" أمام الباب الأخضر، ولم أفصح:

- الجسد كاسر.

ربتَ بابتسامته على كتفي، ونظر إلى السماء، رفعتُ رأسي أتتبع موقع نظرته، التي لم ألحق بها، ووقفتُ على بوابة السماوات حائرة وحيدة أشكو ضعفي، وقلة حيلتي، وصرخات جسدٍ اكتمل.

الحُسين - سبتمبر ١٩٩٦

عـرق ملون

وقفتُ هناك في ركن الشرفة، مستندة بعظام حوضي على السور الحجري الأبيض. كان العمود المعدني الواصل بين زاوية السور القائمة وزاوية سقف شرفة جيراننا العلوية، يواجهني و يشطرني تمامًا من قمة رأسي وحتى عظام الحوض. مِلتُ بنصفي الأعلى قليلاً للأمام، واتكأت بجبهتي على العمود.

تألمتُ من احتكاك عظام حوضي بالسور، ونظرتُ للأسفل، سقطتْ نظرتي في الكوب الخزفي الأبيض الذي أحمله بين كفي، ارتكزت على جبهتي تمامًا، وحركت وجهي قليلاً لليمين وقليلاً لليسار، كان شعري ينزلق معي أينما توجهت، تابعتُ تراقص الخيالات على سطح السائل الشفاف في الكوب الذي ضم ماءً مغليًا به عدة ملاعق من السكر لأداوي نكهة غريبة التصقت بجدران فمي... طريقة العلاج المؤقتة نفسها التي اخترعتها أمي، لثتي أيضًا تؤلمني هذه الأيام، ولذا توقفت عن غسل أسناني كما اعتدت بالفرشاة والمعجون، هذا الصباح، بلّلت وجهي فقط بالماء لأفيق قليلاً، وأضفتُ للغلاية الكهربائية المزيد من الماء، الذي يكفي لعمل عدة أكوابٍ من الشاي -

رغم وحدتي - وذلك حتى لا يغلي الماء بسرعة قبل أن أنتهي من شرب ما في الكوب.

أذكر عندما تناولتُ معه عشاءً شارك الثوم في صناعة كل أطعمته: طماطم متبلة بالخل، وباذنجان مخلل بالفلفل، وفول بالدقة.
نسيتُ يومها تمامًا تحذير أمي لي من تناول الثوم في المساء - أو قبل أداء الصلاة - كانت أمي تقول إن الملائكة التي تحمينا ليلاً تفرّ من رائحة الثوم أو البصل المنبعثة من الأفواه المفتوحة عند النوم، وعندئذ تتحطم قلاع الدفاع، وتتسلل شياطين الليل المتحفزة وتدخل إلى الأجساد لتفعل ما يتبدى لها.

ليلتها كان طعم الثوم لاذعًا على لساني، أكلتُ منه الكثير، ولم ألق بالاً لطبيعة معدتي التي لم تعتد تناوله، داويتُ معدتي في اليوم التالي بأكواب المياه الساخنة المحلاة بالسكر، فارتحتُ قليلاً، وقلت: لا بأس من بعض الآلام إذا اكتشفنا كم هو جميل ما نجهل.
ولكنني تساءلت هل لذة التذوق الأولى لابد وأن تعقبها دومًا آلام ما؟

رغم ذلك؛ أعترف؛ أحببتُ الثوم كثيرًا، صرتُ آكله كلما سنحت الفرصة، اعتادته معدتي قليلاً ولم أعد أشرب الماء المغلي بعده، إلا لكي أدارى رائحته عن أمي.

خلفي في الشرفة كانت عصفورة أمي الوحيدة في قفصها تقفز وتخبط بجناحيها، كانت ترفرف في سماء القفص فتصطدم بقضبانه، كانت تبحث عن شيءٍ ما؛ هكذا خمنت، ربما كانت تنادي قطتنا التي رحلتْ بعد أن أغلقتُ باب المنزل في وجهها أكثر من مرة، كنتُ أخشاها رغم السنوات الطويلة التي قضتها بيننا، ودائمًا كانت تنتهي كل محاولات تسللها إلى غرفتي بصرخة تصدر عني، ويضحك لها كل المقربين الذين كانوا يقولون إن حدة صراخي لا تتناسب مع جسدي الذي كان بدينًا وقتئذٍ، والذي ورثتُ بدانته عن أمي، التي تغضب من مطاردتي للقطة، ولها وحدها كنت أبرر فعلتي في كل مرة بقولي: أخاف من التهامها للعصفورة الصغيرة.

كانت أمي تدافع عنها قائلة:

– القطط لا تأكل العصافير الصغار، إنها فقط تحميها.

لم أصدق أبدًا ما قالته أمي، وظلتْ علاقتي بالقطط غريبة.

عندما كنتُ ذاهبة لأول موعد معه كان الوقت ظهرًا، ركبت "مترو" الأنفاق، وجلستُ بجوار الباب، وفي إحدى المحطات تسللتْ مع أقدام الداخلات إلى عربة السيدات قطةٌ سوداء ضخمة، دارت القطة في العربة بين المقاعد والأقدام القليلة المتناثرة تحتها، وأخيرًا استقرت

بجسدها الضخم على حقيبتي القماش اللينة، التي وضعتها على الأرض لأتخفف منها ومن ثقلها، كان بالحقيبة ساندويتشًا صنعته لي أمي في الصباح، نسيتُ الساندويتش تمامًا فور خروجي من المنزل، حتى ذكرتني به القطة التي ظلتْ تموء.

سحبتُ الحقيبة بهدوء من تحت ثقل جسدها وبطنها المنتفخ، دون أن ألمسها، أخرجتُ الساندويتش المصنوع من الخبز البلدي ومربى التين التي أكرهها، ويعشقها أبي ويحرص على وجودها في ثلاجة البيت باستمرار. وبعد رحيله، أصابت أمي حمى عشق مربى التين، وأصرّت هي الأخرى أن تجعلني من عشاقها، ولكنني لم أفعل سوى كراهيتها أكثر.

برفق،ألقيتُ بالساندويتش بعيدًا عني،فاتجهتْ نحوه القطة وتشممته ثم التهمت نصفه، عادت تموء بجواري وهي تتابع نزول وصعود الراكبات، وفي الوقت نفسه تبحث عن حقيبتي التي احتضنتها بين ذراعي بينما هي منشغلة في التهام نصف ساندويتش المربى.

ظلتْ القطة واقفة لثوان، ثم بدأت في الدوران حول قدمي والاحتكاك بذيل فستاني الحريري، خشيتُ على الفستان من أظافرها، فجمعتْ ذيله بين ساقي وجلست متربعة على المقعد المزدوج الذي كنتُ أحتله بمفردي. كان منظري مضحكًا، وجاءت صرختي الحادة مفاجأة

للجميع عندما قفزت القطة من الأرض قفزة واحدة لتجلس بجواري على المساحة الخالية، حاولتُ رسم ابتسامة، ونفخت في ضيق وخوف، كانت كل وجوه المحيطات بي تكشف عن سخريتهن الكاملة من خوفي، لأن الأمر كان طبيعيًا على الأقل من وجهة نظرهن، فقط الجالسة أمامي كانت أكثرهن تعاطفًا معي، لاحظت هذا في ابتسامة عينيها وقولها:

- القطط تقرأ الأفكار ، وتُطارد من يخافها.

ابتسمتُ لقولها، فأضافت:

- بطنها المنتفخ يؤكد أنها مثل كل الأمهات، فضوليات ويثرن الشفقة لا الخوف.

كانتْ كتب الفتاة -التي خمنت أنها طالبة جامعية- على فخذيها، ونظارتها الطبية على وجهٍ دون ماكياج، وجسدها المتماسك داخل بنطلونها الجينز، والثقة التي نطقت بها كلمة "فضولية" أكدتْ لي صفتها، كنت أرتدي على النقيض منها، وأضع على وجهي أحمر خدود وشفاه رغم كوني طالبة مثلها تمامًا، وهمستْ لي قبل أن تنزل في محطتها:

- لا تخافي منها.

بين مكانها إلى جواري، وبقايا الساندويتشات ظلتْ القطه تروح وتجيء، وعندما وصل المترو إلى محطتي، حرصتُ على أن أظل جالسة في مكاني حتى آخر لحظة، وقبل إغلاق الباب بثوان غافلتُ القطة وقفزت قفزه واحدة إلى الرصيف، وقف الباب المغلق حاجزًا بيني وبينها، كان المترو يتحرك بهدوء وصوت موائها يصلني ضعيفًا دامعًا، بينما عرقي الملون برائحة قلقي يسير فوق عمودي الفقري.

• • •

في مكاني هناك في ركن الشرفة، مستندة بعظام حوضي على السور الحجري الأبيض، ومن بين العمارتين المرتفعتين المرتكزتين على ناصيتي شارعنا، منحتني شمس "أغسطس" المزيد من حرارتها، لم تفلح بعد نسمات الثامنة صباحًا في منع سريان قنوات العرق التي تجمعت بين الثديين المحبوسين خلف حمالة صدر من الدانتيلا البيضاء التي كانت بطلة حلم سابق سألني فيه:

– لكِ اليوم رائحة جديدة، ما السبب؟

مددتُ يدي وأظهرتُ له حمالة صدري الجديدة، طبع قبلة على خط الدانتيلا وهو يتساءل ألم أراها من قبل؟ هززت رأسي بالنفي، ورفعت ذيل قميص نومي الأبيض لأريه سروالي الجديد، ابتسمتْ

عيناه، بدا وجهه وكأنه يعتذر، قبل أن يهبط برأسه ليطبع قبلة على السروال المحلى بالدانتيلا وزهورًا حمراء مهنئًا إياي على جهدي الواضح في إنقاض وزني.

على سجادة الصالة رقدنا سويًا، احتضنته بقوة ودون صوت خشية إيقاظ أمي المريضة، كانت المنطقة بين عنقينا غارقة في عرق خوفنا والتصاقنا، كنا بكامل ملابسنا، ورغم ذلك تسرب العرق منا مُبَلِلاً سجادة الصالة القديمة، وعندما انتبهتُ لتساقط قطراته، بخلتُ بها على السجادة القديمة فمررتُ بشفتي على تلك البحيرة الصغيرة الغائرة بين كتفه ورقبته لامتص منها ما زاد من رحيقنا.

من بعيد، كانتْ صفارة الغلاية تكرر إنذارها العنيد، حاولتُ التخلص من كرسي الشرفة البلاستيكي، عانيت قليلاً لجذب القميص المبتل، لم أكن قد تذكرت بعد آلية الحركة من كثرة ما جلست، خطواتي المترنحة، وحذري الذي لم يستيقظ بعد، والعرق الذي تساقط على عيني، كلها أسباب جعلتني أسقط متعثرة على السجادة القديمة، كان وجهي مدفونًا في وبرها، وعرقي يتزايد مكونا دائرة واسعة امتزجت على الفور ببقايا عرقنا القديم المختلط، تلمستُ الدائرة اللينة بأصابع يدي، فخرجت ملطخة بألوان السجادة غير الثابتة.

كان صوت صفارة الغلاية يتتابع في جنون، وصورة أبي المعلقة على الحائط تُطل على ما يحدث بوقار معتاد، أما صوت أمي المُزيّن بشريط أسود مائل فقد جاءني يركض من غرفتها وتابعني وأنا أغرق في بحيرتي.

كنتُ أنزف عرقًا وبخارًا، عندما أطلّت عليّ قطةً سوداء بدينة كانت تقف بجوار عمود الشرفة المعدني، ظلتْ القطة تموء في هدوء، وهي تتابع تحولي الساذج إلى ذرّات بخار من العرق الملون.

الدرقي

يوليو ١٩٩٦

روائح تسد الطريق

رائحة الماء تتكاثف، بحيرة التماسيح تنفض زيتها وورد نيلها على أركان شواطئها.

رائحة الماء حياة، ورغم ذلك أبحثُ في صمتي عن إمكانية الحصول على حياة أخرى بعد الموت هادئة ومريحة.

رائحة الماء تفعل ما تفعل في إحباطي وتزيحه كحبات رملٍ تكومت على جدران زجاجة روحي المائلة.

برائحة الماء تعتدل زجاجتي، تنزلق حبات الرمل إلى قاع الزجاجة، وتبقى راكدة هناك، تحتل كل القاع، بينما روحي على السطح تهفو إلى الطيران والخروج من الزجاجة بصحبة رائحة الماء.

• • •

في القاهرة تختفي رائحة الماء، تتبعني رائحة رئيسي في العمل، ورائحة الجيران، وزميلات العمل، ورائحة أبي الذي مات منذ سنوات، وأمي التي تشاركني شاطئي، تسد الروائح كل الطرق فتتراجع خطواتي، رائحة الماء حياة.

تُرى هل أستطيع احتمال كتمان رائحة الماء في صدري؟
رائحة الماء تقول لي: اختزني في رئتيك ما تستطيعين حمله.
أقول أنا: كم هي ساذجة رائحة الماء، لا تدري أن أي هواء يُفسده الانتظار.

• • •

في الإسماعيلية افتقدت كابوسي الذي صحبني طيلة الأيام الماضية، يومان وليلة في الإسماعيلية، لم يُطاردني فيهم كابوسي السابق، قضبان السجن لم تعد تقتحم نومي وتوقظني في منتصف الليل، تلك القضبان التي كنتُ أزيحها بانتفاضتي القوية قبل أن تحتضني، انتفاضة وتمتمات أذكر فيها اللّه والرسول، واستغفر من ذنبي الذي لا أعلمه ولا أفعله، كابوس القضبان يتعقبني منذ بدأتْ علاقتنا في الانهيار، كنت أتخلص من صفاتي التي لا تُعجبه، وأُلقي بها قطعة قطعة، لأنني كنتُ أصدّق كل ما يقول.

رئيسي في العمل يُريد تشكيلي مثلما يرى، كنتْ أكتفي بالوقوف صامتة، أسمع ما يقول وأهز رأسي، وأبحث في داخلي عن "مكوناتي" الشخصية وراء الفشل، أشعر بالذنب، ودائمًا أنني المخطئة.

في الإسماعيلية، ارتديت "الشورت" وأغلقتْ أذني بصمتي، اختفت الروائح، ولم تعد القضبان تطاردني.

• • •

الليل يُقبل، والنوم لم يصطحبني إلى السرير، ما زال النوم واقفًا خلف الباب، خطواتٌ تفصل بيننا، ولكنه بعيد وبخيل يحرمني من متعة سقوط الجفنين إلى أسفل.

مازالت رائحة الماء في أنفي، وشخير أمي يُفزع النوم فلا يأتي، أخرج إلى الشرفة، تَسلل النوم بنعومة، وسحبني إلى أسفل، في القاع، كان الموت ينتظرني فاردًا ذراعيه... فابتسمت لأول مرة في ليلتي.

الإسماعيلية

سبتمبر ١٩٩٥

- **حنين ممكن :**

- **أقاصيص لا تقرؤها الأمهات**
- **أرض و قمر**
- **مطاردة**

أقاصيص لا تقرؤها الأمهات

(مفتتح)

في الصباح:

يشاكسني بابتسامة، ويعدني باتصال تليفوني في أقرب وقت.

في المساء:

ألمحه يعدو على السلم في مطاردة لاشيء.

"أُبسبس" له: بس بس...

يلتفتُ نحوي فألمح ضيقه المرسوم على وجهه، يلوّح لي بيده مودعًا، مستمرًا في مطاردة سرابه، بينما أعدو أنا خلف إحباطي ألملمه.

• • •

حتى الآن، وبسبب الخجل، لم أصرخ في وجه صديقتي السابقة، ولم أقل لها: إنني لا أحبها، وأيضًا أخجل أن أقول: إنني أحبه.

• • •

يقول إنني: أشبه الفصول، وأحمل تقلبها في صدري، لذا لا يدهشني بحثه الجاد عن طلاسم تستكين أمامها رياحي.

ولأنه ليس "سليمان" لا أملك سوى انتظار نجاحه بمنتهى الفضول.

• • •

دائمًا أنسى حافظه نقودي، أو اشتراك المترو، أو أحمر الشفاه، ولا أنسى أبدًا مشاكسة قلبه ودعوته إلى مباراة شطرنج.

ودومًا نغضب كالأطفال، ونحطم العساكر لنبقى ملكًا وملكة.

• • •

"مقهى النرجس" اسم لمكان بلا جذور، يقتحم ذاكرتي، ويزهر فرحة وبهجة وحياة، أُهدى المكان ٤٩٪ من مساحة الذاكرة، أما البقية فهي من نصيب الكائن الحزين الذي ألقاه هناك.

تُرى هل يحنق أحدهما على الأخر؟ أم تراني كنتُ عادلة؟

• • •

"ولنا في العناق حياة"

هكذا همستَ أنتَ، بينما الطابق الأرضي ينتظرنا بنصله الحاد ليشطرنا نصفين بلا حياة.

ألوم ذراعي لأنه لم يحكم إطباقه على خاصرتك، وألوم المصعد لأنه تعسف وأجبرني على مغادرتك.

• • •

كلما حاول مصعد منزل صديقتنا المشتركة الاعتذار رغبة منه في مصادقتي، أطرقتُ بلا إجابة.

في زيارتي الأخيرة انتحبَ المصعد واعترف أنه يغار بشدة من ذلك الأسمر الذي يعشق "عبد الحليم"، أضيق بشكواه، ولا أعيره اهتمامًا، واكتفى بترك رسالة مع حارس البناية أقول فيها:

- كم أكرهك أيها المصعد الأناني.

(خاتمة)

بعيدًا عن ساحة القلب المشتعلة، وقف عقلي على الناصية ورفع صوته بالغناء مؤكدًا أن البقاء له.

أتابع الغرور والتقاليد والآباء والأمهات وجماعات الصفير الحاد وهم يتكاثرون حول عقلي ابتهاجًا بمهرجانه الراقص.

تتسلل الشفتان نحو ميدان القلب، تتشكل الكلمات حرة في سمائه:

– دعهم يعتقدون ويحتفلون، أنا فقط أعلم أن البقاء أنت.

منشية الصدر

أبريل ١٩٩٥

أرض وقمر

في اليوم الرابع عشر من كل شهر أمارس هوايتي السرية، وأشاكس قمري، بزجاج ساعتي السوداء، ولأنه غبي؛ يرى القمر نفسه صغيرًا جدًا.

يحزن قمري ويخاصمني، ويسكب كل مساء ضوء ثقته فيتآكل قطعة قطعة.

أبقى في نافذتي غاضبة حتى اليوم الثامن والعشرين أبحث عنه في سماء وحدتي، وأجده هناك محاقًا زاحفًا يقترب من لحده، في سكرات الاحتضار، الأخيرة أميل عليه وأهمس في أذنيه بأنني أحبه، وأنه أكبر -في نظري- من كل نجوم وكواكب مجرتنا القديمة، يبتسم في وهن، أربتُ على كتفه، أُداريه ببعض السحب الدافئة، وأتركه لينام حتى يستعيد بريق حياته، بعد أن حصلتُ منه على موعد في مساء الغد.

في المساء التالي أجده يحاول الامتلاء من جديد، وأركض معه أربعة عشر يومًا في مرح، حتى أداعبه بزجاج ساعتي من جديد فيحاول الانتحار، ويسكب كل مساءٍ ضوء ثقته فيتآكل قطعة... قطعة.

وادي النطرون

٢٠ أبريل ١٩٩٥

مطاردة

عندما طاردهما شبح الوداع، أدركتُ أنها ستفقده.

داعبَ الحزنُ أغصان عينيها المُثقلتين بثمار دموعها، فسقطتْ بانتظام متتالية ومتوالية؛ لتشق لها مجرى كفضة انصهرت على وجه من طين محروق.

لم تنزلق، ولكنها تركتْ لقدميها حرية السقوط أو التماسك، أما شيخها فقد أقام سياجًا يقيها ويقيه شر الهاوية، قال لها راجيًا أو محذرًا:

- إياكِ أن تدفعيني إلى هوة محبتك.

وصار بكاؤها طقسًا من طقوس اللقاء، يغضب منها في المساء، ويعاود الاتصال بها في الصباح.

هذه المرة، خاطتْ دموعها في "كم" قميصه، لم يعترض، واكتفى بنظراته الراسمة علامة تعجب، تشبثتْ به، اتكأت على حنانه، تنهدت كقطه تموء وتحتمي في صاحبها، واصل نظراته التي ارتدّتْ حادة إلى صدرها عبر الخيال المرسوم على زجاج السيارة، رأى بخبرة الخمسين عامًا أنها ربما لا تحتاج سوى حنانه الدافق.

- لماذا ترفضني؟!

بصوتٍ خافت خشية أن ينتبه السائق ألقتْ بنتُ العشرين بسؤالها، ولكن السهم أبي أن يصيب شيخها فيتكلم.

- ....

لم يعدِ التساؤل مجديًا، اقتربت منه، التصقت به وذابت في حرارة جنبه الأيسر، الدفء دفعها لتتجاهل نسمة هواء ليلية تسللتْ عبر نافذة السيارة الأمامية، رفض أن يستجيب لإلحاحها في الحصول على إجابة، أو إصرارها على الذوبان.

ألقت برأسها خلف كتفيه الرومانيين العاليين، واستمتعت بمنطقة الدفء الواقعة بين كتفه ومسند المقعد الخلفي الداكن.

تنفستْ الهواء تحت جناحه، تسلل إليه وهمٌّ نومها، كان حريصًا ألا يوقظها، ركضتْ نبضاتها باسمة عندما وجدته يستخدم يدًا واحدة لإشعال سيجارته.

كعصفورٍ يستكشفُ الجوّ، أطلّت من مكمنها وهي تتساءل:

- أنا مضايقاك؟

أصرّ على الصمتْ، مانحاً إياها إشارة خضراء للاستمرار والاستقرار في مكانها.

شعرتْ به مستمتعًا ومكتفيًا بالغوص خلف دخان سيجارته محلية الصنع التي لا يشربها إلا الرجال الحقيقيون، هكذا قال لها. وهي تصدق كل ما يقول.

استجمعتْ بقايا عنادها وتنفسته بعمق، ليشتعل ذراعه بزفراتها الحارة، لم ينتفض، ولم يتساءل، ولم يرد على استفزازها مكتفيًا بذراعه الذي يلامس صدرها الراكض.

• • •

منزلها يقترب..

بجوار دائرة صغيرة صنعتها دموعها على كتف قميصه الرمادي، أضافت قبلة صغيرة بحجم شفتيه المختفيتين خلف لحية وشارب بلون القطن الطبي المتسخ قليلاً. التقطت حقيبتها وأمرتْ السائق بالتوقف عند الناصية المشتعلة مصابيحَ.

طلبتْ منه أن يدعو لها بالتوفيق، وخرجتْ قدماها العاريتان حتى الركبة من السيارة وهى تحسب عدد الكيلوات التي جاورت فيها حنانه، كانت هي الرابحة.

• • •

قبل أن تُغلق الباب سألها بابتسام وحماس غير محايد على الإطلاق:

– إنتي فاضية إمتى؟

تريومف

مايو ١٩٩٤

- ولع دائم :

- شجرة التين

شجرة التين

هنا أحمر، هنا أخضر، هنا أسود، هنا أبيض، وحولهم سور.

في غرفة السطح، كان (إياد) يمسك بألوان فرشاته، ويضع اللون والخط.

• • •

عندما دخل شقيقه الأصغر (صائب) الغرفة في غيابه، مزج ألوانًا ببعضها، وأمسك بفرشاته ورسم على الحائط ما تخيل أنه جملٌ من لحم وصوف وعظام، وجبلٌ من حجارة وأشجار، وأطفال يركضون ودخان يتبعهم. صرخ فيه (إياد)، فأخفى الصغير وجهه بين يديه وخرج يتعثر في دموعه.

• • •

مسح (إياد) بطرف "خرقة" عامرة بألوان شتى حدود لون زادت سطوته على صفحة اللوحة: أحمر قرمزي قان.

• • •

كانت شقيقته المُقعدة تسمع ما يقوله الصغير (صائب)، وتمضغ كتبًا وصحفًا، وترسم على حدود أوراقها أسلاكًا شائكة، بينما (إياد) يرسم في غيابهم ونومهم لوحته شجرة زيتون لم يغفل تفاصيل الحبّات التي قاربت النضوج تنتظر من يقطفها.

• • •

في عبوره على السطح، دخل إلى الغرفة الأب العجوز الذي أُحيل إلى التقاعد مؤخرًا، كان (إياد) منهمكًا في الأخضر على شجرة البرتقال، ويُنهي سطح بيتٍ مبني بالحجر، أثنى الأب على المشهد.
واصلت أصابع (إياد) زرع بيوت وبناء أشجار وعصافير ترفرف وراء السلك. ربتَ الأب على كتف الابن، وطلب منه ألا ينسى في الغد دفع فواتير الكهرباء والماء والتليفون وأجرة البيت.

• • •

وحدها أمه المنشغلة صباح ومساء في مطبخها لا تعرف ما يرسمه (إياد). عندما أنهت يومها، جلستْ إلى جواره لتواصل كما تفعل كل مساء سرد قصص قريتهم التي لن يزوروها أبدًا إلا في دفاتر التاريخ.

• • •

احتفظ (إياد) لأمه بمفاجأة تتجدد كل يوم، عندما وعدها بهدية تليق بها.

أخيرًا، وقّع (إياد) لوحته باسمه، ودون التاريخ: ١٥ مايو ٢٠٠٨.

عندما أراد (إياد) تثبيت اللوحة في صالة منزلهم، اغرورقتْ العيون بالدموع، ووقفت الكلمات في الحلوق الجافة، وحدها أمه اعترضت في شبه غضب:

– ويلك يا وليدي، نسيت التينة يا (إياد).

الهرم

مايو ٢٠٠٨

آمال عويضة

كاتبة وإعلامية

amalewida@yahoo.com



شمس للنشر والإعلام

رؤية جديدة في عالم النشر

في مسعى جاد لتقديم رؤية جديدة تسهم في تصحيح العديد من المسارات في مجال النشر، تم تأسيس "مؤسسة شمس للنشر والإعلام" كخطوة على طريق إرساء أسس مشروع ثقافي متكامل يهدف إلى نشر الإبداع العربي في كافة التخصصات، وإثراء صناعة النشر، وتقديم إضافة حقيقية إلى مسيرة الكتاب العربي، وفق رؤى متوازنة تجمع ما بين طبيعة عملها كمؤسسة تجارية تتطلع إلى تحقيق الربح والانتشار، ومابين تحقيق رسالتها الثقافية.

وتهدف "مؤسسة شمس للنشر والإعلام" إلى تحقيق عدد من الغايات:

- إتاحة الثقافة الرفيعة للقارئ العربي، وتلبية حاجاته من المعرفة.
- الإسهام الفعال في نشر الإبداع العربي، من خلال سياسات ترويج وتوزيع تتلاءم ومقتضيات العصر.
- تفعيل حركة النشر، خاصة لشباب المؤلفين، ورعاية وتشجيع المبدعين، ودعم قدراتهم الفكرية والأدبية، والعمل على نشرها وإبرازها.
- حماية الحقوق الفكرية والمادية للكتّاب، وإعادة صياغة أسس التعامل المادي مع المؤلفين وفق قواعد أكثر إنصافاً.

- التعريف بالكاتب والكتاب إعلامياً وجماهيرياً، ومد جسور التواصل بين المبدع والمتلقي.
- إثراء الحياة الثقافية بالأنشطة والندوات والفعاليات، من خلال رؤى تنظيمية وترويجية تضمن نجاحها والمشاركة الفاعلة فيها.
- الوصول بالإبداع العربي إلى القارئ غير العربي، من خلال ترجمة الإصدارات العربية المتميزة إلى لغات مختلفة، والعمل على خلق آفاق عالمية لنشرها بالتعاون مع دور نشر احترافية في العديد من الدول.
- توثيق الصلات بين دور النشر المحلية والعربية والدولية، وكذلك بين الكتاب والمثقفين العرب، والتواصل الفاعل مع المهتمين على اختلاف توجهاتهم، وفق صيغ تعاون إيجابية.
- إعادة نشر التراث المعرفي العربي ذي الإفادة في عصرنا، وتحقيقه وتدقيقه.

ويرتكز عمل المؤسسة على منهاج "احترام الكاتب والكتاب" مادياً وأدبياً ومعنوياً، وفق عدة معايير تقوم على الالتزام التام بأخلاقيات مهنة النشر. وتسعى لتقديم رؤية جديدة لصناعة الكتاب تشمل الدقة في انتقاء المحتوى، والجودة في إخراجه وتصميمه وتنفيذه وطباعته، والاهتمام بنشره وترويجه إعلامياً ودعائياً، بما يضمن له؛ في النهاية؛ مكاناً بارزاً في مكتبة القارئ.

شمس للنشر والإعلام

www.shams-group.net

(+2) 02 27270004/5 - (+2) 0188890065/64

فهرس

- **شجن خفيف :**

- **شوك محتمل :**

- **حنين ممكن :**

- **ولع دائم :**


شمس
ش
للنشر والتوزيع
(+٢) ٠١٨٨٨٠٠٦٥   (+٢) ٠٢٢٧٢٧٠٠٠٤
www.shams-group.net